

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

إقبال الشاعر الثائر

Iqbal The Revolutionist Poet

عبد الرحمن

Dr. Naguib Al Keilany

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



إقبال الشاعر الثائر

Iqbal The Revolutionist Poet



دار الصحوة للنشر والتوزيع
Telefax: +202 42 10 60 60
Mobil: +20 1114520485
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

إقبال
الشاعر الثائر

تأليف
د . نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2015م

رقم الإيداع
2015/13316

الترقيم الدولي
978-977-255-463-8



القاهرة - تليفاكس: 0020242146060
موبيل: 00201114520485
daralsahoh@gmail.com

مقدمة



أردت أن أسطر هذه الصفحات الموجزة عن (الدكتور محمد إقبال)، أول من دعا إلى تكوين دولة باكستان؛ لأن فلسفته وشعره ونمط حياته، وقصة كفاحه؛ جديرة بأن يقرأها شبابنا، وخاصة في هذه الفترة الدقيقة، التي تجتازها بلادنا الحبيبة!..

ولقد توخيت السهولة والاستطراد التوضيحي؛ فقد قصدت أن يكثر عدد قراء (إقبال) في العالم العربي، وأن يستطيع ذوو الثقافات أن يلموا بسيرة هذا الرجل العظيم!..

وقد يجد القارئ شيئًا -ليس بالقليل- من الدسامة في الشعر الذي استشهدنا به، لكن لو أدرك القارئ أن الترجمة من الشعر إلى الشعر أمر ليس ميسورًا سهلًا، فيسقدر من غير شك هذه الظروف!..

هذا...

وأرجو أن تكون هذه السطور زادًا لشبابنا المكافح في معركته الدامية ضد قوى الاستعمار!..

لقد كان (إقبال) أحد أولئك القلائل؛ الذين بعثوا النور في سماء الشرق من أمثال (الأفغاني) و(محمد بن عبد الوهاب) وغيرهما، فرحم الله (إقبالًا)!..

* * *

بين البرهمية والإسلام



(الهند) ... عام1873م

لقد لوّث جمالها، وشاب جلالها، وجود الاستعمار الغربي الذي لا يقدس حرية، ولا يبقي على كرامة، لأن أجواء الحرية والكرامة لا تعطي الفرصة له كي يتنفس ويعيش، وهما عدوان لدودان للغاصبين، فلن يستطيع الإنجليز أن يسودوا، إلا حيث تُهدّر كرامة الأحرار وتُداس عزتهم!..

وبالأمس ثارت الهند الأبية -أو الدرّة العصماء- على تاج الإمبراطورية التي أرغموها أن ترتبط به، لكن قدِّر لهذه الثورة الإسلامية، التي قام بها الجيش الهندي، أن تقهرها قوى الاستبداد الغاشم، فلم تصل إلى غايتها، وما أكثر الدماء التي أريقت، والأرواح التي أُزهقت ظلمًا وعدوانًا!..

ومضى على هذه الثورة ما يقرب من عشرين عامًا.. لكن ذكراها كانت عالقة بالأذهان وحوادثها الحمراء ما فتئت تجري على ألسنة الأجيال وتراود خيال الفتية الناشئة، والشعوب إذا أثقل كاهلها الألم، وأنهكها الطغيان، تحلم بماضيها، وتجتر تاريخها

العاطر، فتشعر بشيء من الراحة، وبقليل من العزاء، لعل في ذلك ما يدفعها إلى الأمام ويبث بين حناياها بذور الأمل والرجاء...

في هذه الفترة الحرجة المضطربة من تاريخ (الهند) عام 1873م، بزغ في سماء الخلود والمجد نجم ساطع لألاء، أخاذ الرواء، ألا وهو نجم شاعرنا الفيلسوف، والحكيم النابة، والعالم المبرز، والخطيب المفوه، والناثر البليغ، والمسلم الحق (محمد إقبال)!..

وُلد شاعرنا العظيم في بلدة (سيالكوت) - في إقليم (البنجاب)- حيث الأنهار الجارية التي تنحدر عبر التلال الجميلة، حاملة في خريرها وتدافع أمواجها، قصة الأزل، وسنة الأبد، لذلك تفتحت عينا (إقبال) -أول ما تفتحتا- على مناظر بلاده الجميلة، وطبيعتها الخلابة فوق السفوح والسهول، وفي السماء والأرض، ولم يكن يشوّه جمال هذه البقاع إلا هوان أهلها، فالخيرات والنعم قد استحوذ عليها غاصب، ومصادر الأرزاق والحياة قد استحوذ عليها وتحكّم فيها دخيل، والإسلام قد صار بين ذويه أطلالًا خربة، وصوامع مهدمة، وأشباحًا لا روح فيها ولا حياة، ورموزًا لا تبعث على فهم أو تمييز...

فهل هناك برهان أسطع على هذا من تلك الحال الزرية، والهاوية السحيقة التي انساق إليها المسلمون، وغير المسلمين، في الهند؟؟..

وهل الإسلام إلا العزة والكرامة والإباء؟؟.. فإذا ما انعدمت هذه المثل وانهارت تلك القيم، فهل من المستطاع إذًا أن نقول أن الإسلام ما زال بخير، أو نقول أنه لم يبقَ منه غير القشور والأسماء المجردة؟؟.. كان على الغافلين أن يتنبهوا، وعلى الغارقين في نومهم أن يهبوا؛ كي يلبوا داعي البعث والنشور..

وشاء الله أن يكون (إقبال) في طليعة الثائرين الداعين إلى البعث، ويا لها من تبعة ضخمة!!..

آباؤه:

ينتمي (إقبال) إلى سلالة وثنية كريمة الأصل، عريقة المنبت، كانت تعيش في (كشمير)، وكانت هذه السلالة من (البراهمة) أسمى وأكرم طبقات الهند، وتنتسب إلى (الجنس الآري)، فالبراهمة هم ذؤابة سكان الهند، ولهم لواء العظمة، ومعقد الفخار والسيادة والسيطرة، والقيمة على طبقات الهند المختلفة -أمرها مطاع، وقولها قضاء نافذ، رغم أنها تعبد الأصنام، وتقدس التماثيل، وكان لهذه الطبقة قانون مدني وسياسي اسمه

(منوشاستر)، يقسم المجتمع الهندي إلى طبقات أربع، تقسيماً قاسيًا ظالمًا، على أساس الاستعباد، والاستغلال الفظيع للطبقات الدنيا واحتقارها، فالبراهمة قوم ملحقون بالآلهة، وهم صفوة الله وملوك الخلف، وكل ما في العالم ملك لهم.. وهم سادة الأرض لهم أن يأخذوا من مال عبيدهم، أي الطبقات الدنيا، ما شاؤا [1]. ولم يكونوا يدفعون أتاوة، وإذا استحق أحدهم القتل اكتفي بحلق رأسه فقط، وترك حيًا!!..

تلك هي حال (البراهمة)، الطبقة التي انتمى إليها أجداد (إقبال). وقد تعجب أيها القارئ حين تعلم أن هذه الأسرة قد تنازلت عن امتيازاتها، وحقها الإلهي، ومنزلتها الرفيعة المرموقة، تركت كل هذا لتنضوي تحت لواء الإسلام الحنيف، الذي لا يفرق بين أبيض وأسود، أو أصفر أو أحمر، وكان ذلك بمحض رغبتها، وبدافع من تفكيرها السليم، فلم يرغم على ذلك سيف، أو يدفعها دافع تافه، من جزية أو تهديد أو وعيدا..

وبهذا أصبح ذلك الجد الأكبر، الملقب بلقب (بنديت) فردًا عاديًا، لا يعترف بالفرق الشاسع بين برهمي ومنبوذ.. وكانت هذه الهداية على يد أحد رجال الصوفية في (كشمير)، ولذا ظلت النزعة الصوفية متغلبة على أفراد الأسرة فيما بعد!!...

---

(1) للأستاذ الندوي.

هكذا نرى أن هذه الأسرة التي تقلبت في أحضان البرهمية وعاشت في أبراجها العاجية وترى نفسها لاحقة بالآلهة ومن دونها عبيد وحشم، نراها بعد ثلاثة قرون قد أنجبت (إقبالًا) الذي يقول:

«يجب أن تفنى في دينك وملتك، بعد أن تكسر أصنام اللون والدم، حتى لا يبقى في العالم (توراني) ولا (إيراني) ولا (أفغاني)...».

ثم يقول في موضع آخر:

«إن مقاصد الفطرة الأولى، ورمز الإسلام الحقيقي هي أن تملك العالم بالأخوة، وتحكمه بالمحبة»!..

فما موضع هذا الكلام بالنسبة لأجداده البراهمة الذين كانوا ينظرون إلى المنبوذين نظرتهم إلى الكلاب والقطط والبوم أو ما دون ذلك؟؟..

وهكذا استطاع الإسلام -بسماحته الحقة، وتعاليمه الخالدة، وشريعته البيضاء- أن يغزوا تلك القلوب البرهمية المتألهة، ويتغلغل في أعماقها، ثم يقوم بأخطر انقلاب مادي ومعنوي في حياتها، فتظهر في ثوب جديد، وتنطلق بقلوب جديدة، ودوافع فطرية سليمة، وهل الإسلام إلا الفطرة السليمة والغريزة المهذبة الطيبة، والاستجابات الطبيعية لنواميس الحياة

ومؤثراتها؟؟.. وما أن تسربت هذه العقيدة الإسلامية الجديدة عبر الأجيال إلى (إقبال)، حتى تلقاها باستعداده الصادق وبيئته العريقة، وفهمه الدقيق، فهتف بأنغامه الشجية، وألحانه القوية، حتى يثير روح البعث في الخاملين من أبناء الهند، مسلمين وغير مسلمين. ولقد قال أحد زعماء الهنادك:

«إن (إقبالًا) قد وضع المصباح على باب المسلم، ولم يحجب نوره عن غير المسلمين، بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح».

وقد يثير هذا الانقلاب العجيب شيئًا من التساؤل: أمن (برهمية) نافرة، إلى إسلامية وضيئة، متضلعة مستقيمة؟؟

والجواب على هذا التساؤل سيكون بسيطًا غاية في البساطة، لو عدنا إلى الوراء عدة قرون، عندما أشرق فجر الإسلام أول مرة على الجزيرة العربية بقوته العجيبة، وسحره النفاذ، الذي استطاع به أن يحدث انقلابًا نفسيًّا هائلًا، جعل من القبائل المتنافرة المتناحرة إخوة أوفياء، يؤمنون بأن التفاني في سبيل الحق، والإيثار والتسامح والإخاء والمساواة، هي الحياة والنور والهداية. وسرعان ما اعتنقت وتصافت رايات (الأوس) و(الخزرج) بعد أن كانت ملوثة بدماء الحقد، ولم تعد تخفق إلا الله، ولا تصطبغ إلا بدماء الأوغاد والطغاة، من خصوم دعوة التحرير والإيمان، واستطاع الإسلام الوليد أيضًا أن يخلق من

قطاع الطرق، ولصوص الآكام حفظة للأمن ودعاة للسلام، وحمَلة للنور والمعرفة..

واستطاع الدين الحنيف أن يكسر حدة النفس، ويكبح شهواتها، ويجمع بين (بلال) و(أبي بكر) و(سلمان) و(علي)، فتلاقى السوقة مع الأشراف، والعبيد مع السادة، لأن الطريق واحد، والغاية متحدة!..

وهذا ما حدث في الديار الهندية لأسرة (إقبال)، فكان الانقلاب الخطير الذي بدّل حياتها، وشكّل سلوكها وتفكيرها، وصبغ حياتها بهذه الصبغة الجديدة: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:138].

صحيح أن (إقبالًا) كان يحظى بقدر كبير من الإباء والشمم والكبرياء، لكن هذا كان مع قوم ذوي مراكز مرموقة في المجتمع الهندي، لكنه كان في الوقت نفسه يظهر التواضع الجم، والاحترام الزائد لمن هم دونه في المرتبة ونباهة الشأن، فلقد دعاه أحد أصدقائه الأغنياء[1] في (لاهور) إلى وليمة عرس، ولكن في نفس الوقت جاء إليه أحد معارفه الفقراء -وكان طاهيًا- يدعوه إلى وليمة أقامها في بيته، فلم يتوجه (إقبال) إلى مائدة ذلك الثري، بل ولى وجهه شطر صاحبه الفقير ليكمل أفراحه،

(1) عن كتاب (فلسفة إقبال).

ويضفي على منزله الهناءة والسرور، لكن (إقبالًا) المهذب لم ينسَ أن يمر على بيت صديقه الثري، ليقول له: «لقد قبلت دعوتك في كرامة صديقي الطاهي». فكان اعتذارًا لبقًا جميلًا.

وهكذا كان (إقبال) طول حياته مسلمًا قلبًا وقالبًا، لا برهميًا متعجرفًا.. مسلمًا يبش في وجوه البائسين والفقراء، ويخالطهم ويجالسهم ويهتم بأمرهم!!..

لقد عرف (إقبال) نفسه في غير زيف أو خداع، وجردها من أوهامها وغلوائها، وطهرها من عبثها وعثراتها، ووقف تجاهها صريحًا قويًا، ثم عرف من هم أجداده في الأمس البعيد، وهم (البراهمة)، ومن هم آباؤه في الأمس القريب، فقام من فوره ليضع لنفسه، وللمسلمين في شتى أنحاء الهند وخارجها، فلسفته الميسورة الواضحة، المستقاة من صميم عقيدته وكيانه وهتف قائلًا:

«كان آبائي براهمة في الكفر، وزهادًا في الإسلام وعاشوا يفكرون في ذات الله، ورأيي أن تكون بداية التفكير نحو قدرة الله، في ذات الإنسان - فمن عرف نفسه عرف ربه...».

لقد أراد أن يبدأ الطريق من نفسه منطلقًا إلى الله سبحانه، فهو غاية الغايات، ومنتهى الآمال.. وسنذكر شيئًا موجزًا عن فلسفته فيما بعد!..

والده:

إذا كانت فترة الطفولة هي التي تحدد مستقبل الإنسان -كما يقول علماء النفس- وهي التي تسم تصرفاته، لما قد يكون اكتنفها من حوادث، أو ألم بها من مشاعر وعواطف وصدمات وغير ذلك، -إذا كانت فترة الطفولة هكذا، فإنها في الواقع قد أثرت في (إقبال) أيما تأثير، وتركت في نفسه خطوطًا عميقة، مهدت لحياته التي ارتضاها لنفسه، وأوضحت الطريق الخطة التي آمن بها وانتهجها. ومن بين تلك العوامل المهمة التي ينطبع بها الطفل، منذ فجر حياته هي طبيعة الوالدين!..

لقد كان والد (إقبال) صوفيًا زاهدًا، يهتز فؤاده رهبة وإشفاقًا، وتدمع عيناه خوفًا ووجلًا، كلما ذكرت الجنة والنار وكلما سمع أو قرأ عن هول يوم الحشر، ورهبة يوم الحساب، ومثل هذا الإنسان لا يفتأ يذكر أن رحلة الحياة قصيرة الأمد، ومهما لازمناها، ولهونا وانطلقنا في رحباتها، فإن لآمالنا نهاية، ولأطماعنا عمرًا محدودًا فلا خلود إذًا إلا للعمل الصالح، ولا خير في شيء إلا طاعة الله فيما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه!.

ففي كتاب (إقبال) -(أسرار الذات) -يقول:

«وقع على بابنا سائل وقوع القضاء، ورفع صوته كأنه نعيب غراب، وأخذ يهز الباب!.. ولما آلمني تصايحه وإلحافه، خرجت

إليه.. فأهويت على رأسه بضربة بعثرت ما بيده، مما جمعه طوال يومه، فلما رأى والدي تلك الحادثة أصفرّ وجهه الأحمر، وانحدرت الدموع نهرًا على خدّية وقال:

«تذكّر يا بنيّ جلال المحشر!..

يوم تجتمع أمة خير البشر..

وأرجع البصر كرّة إلى لحيتي البيضاء!..

وتحول جسمي المرتعش بين الخوف والرجاء!..

كن يا بنيَّ من البراعم في غصن (محمد)!..

وكن زهرة يحييها نسيم ربيع (المصطفى)!..»

في مثل هذا الجو الروحاني الزاخر بالإشفاق من يوم اللقاء، العامر بالحب الخالص لبني البشر، المتأرجح بين الخوف من المصير المجهول، والرجاء في الغد المأمول.. في مثل هذا الجو عاش (إقبال) ينظر فيرى أباه لا يفتأ يتحسس -بأنامله المرتعشة الواهنة- تلك اللحية البيضاء التي تؤذن باقتراب الرحيل.. وتنذر بانتهاء الرحلة الدنيوية القصيرة.. وسرعان ما تحوم في ذهنه مناظر المحشر، ومشاهده العصيبة، التي تنوء تحت ثقلها أقوى القلوب شجاعة، ويتلعثم عندها أقوى الناس فصاحة وبيانًا..

وقد يظن ظان أن مثل هذه الحياة الخائفة الوجلة، وتلك القلوب الواجفة التي تظل تذكر القيامة والعذاب والثواب، تكون دائمًا نهبًا للقلق، وميراثًا للحيرة والشقاء الذي لا ينفد، لكن الحقيقة غير ذلك، لأن مثل تلك النزعة الصوفية الطاهرة إذا ما سيطرت وتحكمت في الإنسان، سرعان ما يرى في الحرمان لذة أي لذة، ويرى في خوف الله طاعة لا تدانيها طاعة، وسعادة لا تعادلها سعادة، فلا حيرة إذًا، لا شقاء ولا قلق ولا شك، وإنما الرضا الشامل والسلامة والأمان!..

فلا عجب إذا ما ذكر (إقبال) أبوه بالمحشر وهوله، ثم أتبع ذلك بوصية رائعة لفلذة كبده الحبيب، كي يكون برعمًا وضاء حيًا، في الغصن اللدن النضير، والفرع النبوي الموفق، ولكي يكون زهرة لا تنعشها إلا النسائم الربانية، ولا تحييها إلا الخفقات والنبضات الإسلامية، ولا تستنشق إلا ريح الدين وأنفاس الرسول العربي (محمد بن عبد الله)..

وكأني بإقبال، ذلك الفتى الغصن اليافع، وهو يتلقى تلك الأنغام السلسة تتدفق من فم أبيه في سهولة وغير تكلف، صادرة من أعماق روحه المؤمنة، نابعة من فيض نفسه الناصعة الورعة، فيتلقفها (إقبال) في سهولة وغير تكلف أيضًا، ويتقبلها تقبلًا سريعًا طبيعيًا، ثم تسرى في قلبه وفؤاده، فتصير هذه المعاني لديه

في الحياة!.. هي الإسلام والسعادة والنعيم الأبدي، والراحة في الدنيا والآخرة!..

إن الجرعات الدينية النقية لهي الدواء الناجع البشرية الحائرة، وإن في الكؤوس الروحية الخالصة لنشوة سامية تنفي عن الإنسان ظلمات الشك، وتحجب عن عينيه أصنام اليأس، والاستسلام، وترده إلى حظيرة الخير والحب والصفاء، ولطالما ارتشف (إقبال) من تلك الكؤوس فشفت من نفسه جراحًا، وأبانت له عن طريق سليم واضح، وكشفت له عن أشياء، ما كان ليكشف عنها، وينعم بجمالها، أولا تلك الجرعات النافعة، وما أجمل قوله:

اليــــوم أســـمعك احتـــدام مـــشاعري
وصراخ إيـــماني وصــــوت منايــــا
المــــستحيل بــــدا لعينــــي ممكنًــــا
ســــأرى الخليقــــة مــــا رأت عينايــــا

****

لم ألـــقَ في هـــذا الوجـــود ســـعادة
كمـــودّة الإنـــسان للإنـــسان
لمـــا ســـكرت بخمرهـــا القـــدسي.. لم
أحـــتجْ إلى تلـــك التـــي في الحـــان

هذا هو نتاج «الزهرة التي يحييها نسيم ربيع المصطفى»، كما قال له أبوه من قبل، وهذا هو (إقبال) الذي يوقد (شموع القلوب) بعد أن غرقت في بيداء الظلمات، ويبعث فيّ ثورة صرخة الإيمان والأمل، بعد أن ضرب اليأس أطنابه، وساد (الهند) عسف وطغيان وفساد، وطوى المسلمين خنوع وإذلال!..

وهكذا عوّل (إقبال) على أن يصيح ويصيح، حتى يملأ ربوع الهند والعالم الإسلامي صياحًا ونداء، كي يبعث النائمين في الكهوف،والموتى في القبور.. قبور الضياع!.. ولكي يصرف القلوب الضالة الكافرة عن كأس الشيطان، ويتجه بها إلى كأس المودة، وظل الإسلام والتحرر والمحبة!..

***

بين العلم والعمل



إن الدعوات الكبيرة، ذوات المرامي البعيدة والأهداف الإنسانية، قلما تنجح بالعصبيات الجامحة وحدها، وقلما تستطيع أن تمضي بين العواصف والأنوار الثائرة بهذا وحده، فلا بد من الفكر الثاقب، والعلم الواسع، والقلوب الكبيرة الواعية والعقيدة القوية الصادقة التي لا اهتزاز فيها ولا غموض... وعندئذ تسهل التضحيات، وتنضح المناهج، ويعي الداعية ما يقول، وبالتالي يعي الناس ما يلقى إليهم، فيشمون منه روح الصدق، وبوادر الإخلاص، ونوايا الوفاء!.. وهنا تراود أخيلتهم أحلام البعث والتحرر، وتظل تلح وتلح عليهم، وتتجسم أمام بصائرهم، حتى يستجيبوا لها، ويهبوا كالأقدار النافذة التي لا تذعن ولا ترضخ، ولا يخيفها بلاء مهما كثر، ولا يروعها بذل مهما غلا، ولا يعوقها حاجز مهما علا وصمد!..

نقول إن الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة، هي الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الإصلاح والبعث والتحرير، فهذه إذًا هي القاعدة،

وحينما نقول العلم، نقصد العلم عامة سواء من الشرق أو الغرب، وفي (لاهور) أو (كمبردج) أو (ميونخ) !.. ونقول أيضًا العلم الذي يغزو العقول، ويصل إلى أعماقها، فتفرزه وتفحصه، وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها، ولا يخالف فطرتها، أو يضاد عقائدها ومثلها العليا!..

إن من يتلقى كل شيء بقبول حسن، ويقبل كل علم، ويؤمن بكل نظرية، دون فحص أو تمحيص، فيلغي شخصيته ويتناسى وجوده، مثله كمثل الذي فقد حاسة الذوق، فهو يأكل الشهد، دون أن يشعر له بلذة، ويتناول المر دون أن يدري له غصة أو مرارة.. إنه يأكل فقط ليملأ معدة خاوية، ويقضي عادة متبعة، وتقليدًا جاريًا.. ولكي يعيش!..

كان (إقبال) -شاعر الإسلام- من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه، ويلحقون به أينما رحل!..

وفي أثناء ذلك، كان (إقبال) يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية، والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة، فينقدها ويفندها ويردّها إلى أصولها، فيعلم الثمين من التافه، والنافع من الضار...

وظل رأيه هكذا متحرر النزعة، متحرر الفكرة، يناقش وينقد، ويبتكر، ويقدم إنتاجه في ثوب رائع قشيب لا تملك أمامه إلا أن تبدي الإعجاب، وكان نتيجة ذلك أن أصبح (إقبال) ذا فلسفة جديدة ومذهب مستحدث، وآراء عميقة، يتناقلها الكتاب والفلاسفة من قُطر إلى قطر، ومن جامعة إلى جامعة، في (إيران) و(الأفغان) و(مصر) و(ألمانيا) و(انجلترا) و(إيطاليا) و(روسيا) !..

أجل، إن المقلد الأعمى لا يأتي بجديد، بل يجلب على نفسه السخرية والضحك أمام الأجيال التي تتوق إلى الخلق والإنشاء وتتلذذ بالجديد النافع، وفي نفس الوقت تنماع شخصيته، وتذوب فرديته أو (ذاته)، التي حرص (إقبال) في فلسفته أن يجعل منها رمز التقدم، وشعار التحرر والمجد والخلود كما سنرى!...

***

ذهب (إقبال) منذ نعومة أظافره إلى مكتب تحفيظ القرآن في (سيالكوت) فما أن يتحرك النهار، وينحسر ظل الليل رويدًا رويدًا، وتثب الشمس من الأفق الشرقي حتى يكون (إقبال) جالسًا يستقبل الفجر وأنداء الصباح تتمسح بوجهه البريء الصغير، فيهب في نشاطه المعهود، ويصلي من خلف أبيه الشيخ

الزاهد، ثم يتلو القرآن، وقد حرص أبوه -المربي الفاضل- على ألا تكون قراءة (إقبال) كلمات تلقى، وآيات تتلى وإنما قال له:

«يا بني اقرأ القرآن، كأنه نزل عليك...»

وفي ذلك يقول (إقبال):

«.. ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت!..».

كان الشيخ يريد لابنه أن يعي ما يقرأ، ويفهم ما يتلوا... ثم ماذا؟ ثم يتصور أن هذا القرآن قد نزل عليه هو، أي أن الله يخاطبه ويدعوه أن يعمل ويكافح ويثابر، ويتلقى المسئولية كاملة، ويقوم بأعباء أخطر رسالة، وينهض بأثقل حمل، فلكل مسلم دور كبير إزاء إسلامه، فيجب أن يؤديه بكل دقة وإخلاص، فليس الإسلام استظهار متون، وحفظ حواشٍ، بل هو فهم وإدراك، وصيحة الحق والنور والهداية، والسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول عن النبي ﷺ: «كان خلقه القرآن..».

وقراءة القرآن في الصباح زاد رائع لا يدركه إلا المجربون ونور رزين طهور، لا يطرب له إلا المؤمنون، إذ أنه يطبع الإنسان بطابع الرقة والحب، ويبثه هدوءًا وأمنًا عجيبين!.. لذلك كان (إقبال) منذ صغره فاحص النظرة، ملهم الحكم، يخترق بثاقب فكره الحجب المتكاثفة، ويغوص بعقله المؤمن إلى

أعماق الحقائق!... فلا يقنع بالأصداف والقشور، عن الجواهر ولباب الحقائق!..

ثم انتقل (إقبال) إلى مدرسة (سيالكوت)، وما أن أتم دراسة الثانوية حتى التحقق بكليتها، حيث تلقى أصول اللغة الفارسية والعربية على أستاذه السيد (مير حسن).. ولقد امتاز طوال هذه الفترة، بذكائه الحاد، وبديهته السريعة، وحوزه لقصب السبق بين أقرانه ولداته، ونتج عن ذلك أن نال الجوائز السنية،ونال فرصة الدراسة بالمجان.

ولعل من نافلة القول أن نذكر شيئًا عن أن أخلاقه وسلوكه، اللذين قد انطبعًا بنشأته الدينية ومدرسته القرآنية، وأسرته المؤمنة المتصوفة، فكان سمحًا هادئًا معوانًا، رقيق الحاشية، طيب العاطفة، واسع الصدر، يحترمه الجميع، ويجلُّه كل من اتصل به وعرفه حتى أساتذته، وفي هذه الفترة ازدادت تأملاته، وازداد نشدانه للحقيقة، كأنما كان يحلم بالاستقرار الفكري وهدوء البال، فاستمع إليه وهو يقول:

«أنا طالب النور... أنا قلق في معمورة هذا العالم...أنا مثل الطفل الصغير في ظلام الوجود الحالك... أنا مضطرب كالزئبق!..».

فما السر في هذا الاضطراب المفاجئ، والحيرة المباغتة التي انتابت (إقبالًا)؟؟.. لقد ودع (إقبال) طفولته الوادعة، وصباه الساكن الهادئ، وتعلم الكثير في المدرسة والجامعة وقرأ عن الدنيا، دنيا الأمس واليوم، وسمع عن العالم الحديث، عالم الغرب والشرق، ولقد كان لهذه الفترة الانتقالية أثر في حياته أي أثر، وتلقى (إقبال) سني شبابه، في شيء من الألم والقلق، وكان لذلك سببان اثنان يكادان يكونان العاملين المهمين في ذلك:

أولهما: أن الهند في تلك الفترة، قد استسلمت للاستعمار الغربي تحت التهديد والوعيد بعد أن لاقى الأحرار فيها ما لاقوا: من أذى واضطهاد، وإراقة دماء، وتكميم أفواه، وكبت حريات!.. ولا شك أن للإجراءات الشاذة، والتصرفات الجائرة التي يقدم عليها المحتلون، أثرًا عميقًا بليغًا في نفوس الأمم المغلوبة على أمرها، كما أن المعارك الدامية التي قد تنشب بين القاهر والمقهور، ثم تنتهي إلى النتيجة الدامية التي كثيرًا ما تتبع صراع الحق الأعزل مع الباطل المسلح، لا شك أن لذلك كله أثرًا في نفوس أبناء الشعب -وخصوصًا الواعين الفاهمين منهم- فلا يعقل أن يستمتعوا بالهدوء في ظل الطغيان، أو أن ينعموا بالسعادة تحت جناح الفساد، ويأنسوا بالراحة، في جو خانق مكفهر، تئزُّ فيه طائرات العدو، وتلوثه أنفاسه الدنسة الباغية!...

وثانيهما: الإسلام: الإسلام الذي سمع عنه (إقبال)رضيعًا، وتشرَّبه معنى ومبنى، منذ أن درج في رحبة بيتهم الكبير، والذي رأى سماته وملامحه تشعُّ في وجه أبيه الشيخ وأمه!.. لقد علموه صغيرًا ويافعًا أن في الإسلام خير الدنيا والآخرة، وأن بين دفتي القرآن العصمة والمعرفة والهداية من الضلال، والنجاة من الهاوية، ثم تأكد هو نفسه أن التاريخ يحمل في طيّاته للإسلام كل تمجيد وشكران، وأن الدنيا ظلت تتغنى بتلك الأمجاد أجيالًا وأجيالًا!..

لكن ماذا قد حدث؟.

لقد نسي المسلمون كل هذا أو تناسوه.. فاستسلموا وتواكلوا وخيِّل إليهم أن هذه المصائب قدر لا يُردّ، وقضاء نازل لا يستطيع أحد أن يمنعه!..

ضاقت نفس (إقبال) وفاضت بالألم والحسرة والحزن، فهو يلتفت إلى الماضي الزاهر العامر فيشعر بالقوة وبالسعادة تغمر جوانحه، ثم يرتد طرفه إلى الحاضر المزري المخزي، فيشعر بمدى الكارثة التي حلت بقومه، وتوشك أن تفيض الدموع من عينيه فيصيح هاتفًا: «أنا طالب النور!.. أنا قلق!..» النور الذي يقوده إلى النصر، والقلق الذي بذره فيه انتظار المستقبل المجهول. وطالب النور متى ألح في طلبه، وصرف وقته باحثًا مفكرًا مدققًا، مسلحًا بالخبرة والمعرفة معتصمًا بالصبر

والنضال فهو لا بد واصل إلى ما يريد، نائل ما يأمل، فما أن تمر تلك الفترة الحائرة بنارها التي تنضج ولا تحرق، وتنير ولا تغشي العيون حتى يهتف (إقبال) بعد سنوات قائلًا:

مـــــسلمًا، أن تـــــرد حيـــــاة فيهـــــا

مـــــا بغـــــير القـــــرآن تـــــأتي الحيـــــاة

في (لاهور):

إن (إقبالًا) يمضي إلى الأمام، تدفعه سورة الباب، وعشق العلم، وقلب الشاعر الفتى الطموح!..

لقد فتحت كلية الحكومة في (لاهور) ذراعيها لاستقبال الشاب الذكي، وأخلت له (جمعية حماية الإسلام) هناك منبرها؛ ليذيع من فوقه شعره القوي النابض ذا الروح الجديدة، والأسلوب الفريد.

وفي الكلية فاق وتقدم أقرانه، فنال (ميداليتين) ذهبيتين، ومساعدة الحكومة الشهرية له جزاء اجتهاده.

وعلى منصة (جمعية حماية الإسلام) أخذ يردد قصائده، فجوّبت شهرته الآفاق، وسمع عنه القاصي والداني.

وبعد حين استطاع أن يحوز ثقة أصدقائه وعارفيه في تلك الجمعية، وبعد أن رأو ما رأو من غيرته على الدين، ودفاعه عن الحق، ودعوته إلى الكفاح، اختاروا سكرتيرًا للجمعية.

واستطاع (إقبال) أن يوائم بين الشعر والسياسة، وإن بدا كل منهما على طرفي نقيض.. ولا عجب في ذلك، إذا ما عرفنا قوام ذلك الشعر وموضوعاته وأهدافه، وعرفنا صيغته، فشعر (إقبال) عماده الفقه المتين، والمنطق السليم والوجدان الحي المؤمن، يتخذ من أمراض المسلمين وأدوائهم ومشكلاتهم مادته، ولم يكن يهدف إلا إلى التحرر والخلاص، والعودة إلى الينابيع الأولى، مع الاستجابة لأحداث العصر، ومشكلات الساعة.

وفي كلية الحكومة بـ(لاهور) التقى (إقبال) بأستاذه الفيلسوف المستشرق (توماس أرنولد) وهو من خيره من درسوا الإسلام والتصوف الإسلامي، وله مواقف كريمة في الدفاع عنه، ورحّب الأستاذ بميل تلميذه إلى الفلسفة، فكان له خير مرشد ومعين، وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الصداقة، واستحكمت روابط الألفة، ثم نال (إقبال) بعد ذلك شهادة في الفلسفة.

وكثيرًا ما كان الأستاذ (توماس) يفخر بذكاء تلميذه، ويعتز بصداقته، وظلت هذه العلاقة وطيدة الأركان، وقد حدث أن (إقبالًا) أثناء تجواله في ربوع أوربا، في الفترة ما بين 1905/ 1908م، قد سيطر عليه حب العلم والفلسفة، فأرد أن يتفرغ لهما، ونفر من الشعر وعول على هجره إلى غير رجعه، غير أن

أستاذه لم يوافق على ذلك مطلقًا، فرضخ (إقبال) وواصل إنتاجه الشعري الذي امتزج بالفلسفة، واختلطت له حقائق العلم مع سبحات الخيال!..

ولقد كانت صحبة (إقبال) لأستاذه (توماس أرنولد) ذات فوائد كثيرة، ومدى بعيد فقد استمع (إقبال) إلى رأي أستاذه في كثير من المعضلات والأوضاع الفكرية، ونهل على يديه الشيء الكثير من الثقافة الغربية وفلسفتها، وبإضافة هذا إلى استعداده الطبيعي استطاع (إقبال) أن يرتكز على قاعدة متينة وأن يثبت الأرض تحت قدميه، فلا تهتز أو تميد به، ولقد شهد له أستاذه بذلك فيما بعد، حين طلب من (إقبال) أن يقوم بمهمة التدريس، بدلًا منه، في جامعة (كمبردج) لمدة ستة أشهر، حظي (إقبال) أثناءها بالتعرف على عدد غير قليل من رجالات الفكر والأدب، وأساتذة الجامعات، فاتسع مجال صداقته كما اتسع مجال فكره، فلم يكد يمضي على ذلك بضع سنوات حتى كان بعضهم ينحني على الورق، ليترجم إلى الإنجليزية ثمار تلك العبقرية الهندية المسلمة، وكان ذلك على يد الدكتور (نكلن) الذي ترجم ديوان (أسرار خودي) أي أسرار الذاتية أو الشخصية!..

نعود مرة ثانية إلى (إقبال)، بعد أن أنهى دراسته الجامعية (بلاهور)، فنجد أنه قد عين أستاذًا للفلسفة والسياسة المدنية بالكلية الشرقية في (لاهور)، ثم أستاذًا للفلسفة واللغة

الإنجليزية في كلية الحكومة هناك.. وكان ذلك هو الدليل المادي على تقديرهم لغزارة علمه... ورجاحة عقله، وعظيم عبقريته!..

كان (إقبال) ينشد آفاقًا أرحب، ومجالات أوسع، فضلًا عن أنه يريد مزيدًا من المعرفة والفلسفة، ويتمنى أن يرى بعينه معالم المدينة الحديثة ويلم بكل أطرافها، لأنه لم يرَ منها في بلاده غير ظلها الاستعماري الأسود الجاثم على صدر (الهند) ولهذا قام رحلته إلى أوروبا.

في بلاد الغرب:

قام (إقبال) بهذه الرحلة في عام 1905م قاصدًا (انجلترا) ثم التحق بجامعة (كمبردج)، ونال منها شهادة في فلسفة الأخلاق، وواصل سيره بعد ذلك إلى حيث التحق بجامعة (ميونخ)، في (ألمانيا)، فنال منها درجة (الدكتوراه) في الفلسفة، وبعد عودته إلى (لندن) لم يضيع وقته في العبث واللهو، بل نال شهادة (المحاماة) من جامعة (لندن).

وفي أثناء ذلك، توسع (إقبال) في قراءته عن (نيتشه) و(هيجل)، (شوبنهاور) وغيرهم، وقارن بينهم وبين فلاسفة الشرق، أمثال (ابن سينا) و(ابن رشد)، و(ابن عربي) و(جلال الدين الرومي)، و(الشيرازي)... وغيرهم من الفلاسفة والمتصوفين.

ولقد أصبح (إقبال) بعد ذلك ضليعًا في الفلسفة، ملمًا بدقائق علم الأخلاق، دارسًا للقانون أعمق دراسة، وقد أعانه ذلك على بحث تاريخ الثورات الكبرى، كالثورة الفرنسية مثلًا، وعرف عن كثب حضارة الغرب الحديثة، وعرف مقوماتها ودوافعها وأهدافها، وأدرك عيوبها ومآخذها، وتيقن أنها نهضة مادية رائعة، لكنها نهضة عقلية لا قلب لها، ولا روح فيها!...

وعاد شاعرنا وقد اكتسب الكثير من الأفكار الحديثة التي كانت أوزان الشعر وقيوده توشك أن تضيق بها ولا تتحملها، لكن (إقبال) بما أوتي من لباقة وسعة أفق، وامتلاك لناصية القول، استطاع أن يجعل الشعر أطوع له من بنانه، وأشد تلبية له من خادمة الوفي الأمين. وهكذا مزج (إقبال) الشعر بالعلم، وخلط قواعد الفلسفة وقوانينها بخفة الخيال وروعته، فخرجت أوزانه قوية المعنى والمبنى، أو كما يقول عنها:

كفـــــاح شـــــديد وضرب ســـــديد
فـــلا تـــرجُ في الحـــرب عـــزف الـــوتر

وبعد أن درس (إقبال) الحضارة الغربية ومدلولاتها، وقارنها بالحضارة الإسلامية ومضموناتها، خرج بنتيجة حتمية لا مناص منها، إذ لا يمكن تجاهلها أو تناسيها، لأن ذلك سيكون على حساب الإنسانية، وعلى حساب سعادة البشر.

وهذه النتيجة التي وصل إليها (إقبال) لم تكن نزعة متعصب، أو زعم متدين أخرق، ضيق الفكر، لا يرى الحق إلا من خلال معتقداته، بل كان تقريره نتيجة لتلك الدراسات الطويلة المضنية، والتعمق وراء الفلسفات المتباينة، وفهمه للمدنية الحديثة فهمًا صحيحًا دقيقًا لا تحيز فيه ولا حيف، وليس أدل على عدم التحيز من أن يذكر (إقبال) المميزات والمفاخر بجانب المثالب والمآخذ، ويأتي بقضايا مدعومًا بالأدلة والبراهين.

والآن ما هي النتيجة التي وصل إليها (إقبال)؟

قال للغربيين:

«إن حضارتكم سوف تقتل نفسها بخنجرها.. إن العش لا يثبت على غصن رطيب ضعيف مضطرب..»، لأنها حضارة كافرة القلب ضائعة الروح، وموازين القوى المادية هذه في تغيير وتبدُّل دائم، فهي إن كانت الغرب اليوم، فتزول عنه بأسرع من السرعة التي حصل بها عليها، ولو أراد الغرب للبشرية خيرًا، لتلافى ما وقع فيه من أغلاط، في وسائله، وأهدافه وسياسته!

وتيقن (إقبال) أيضًا أن البشرية لن تسعد وتهنأ إلا إذا حطمت فوارق اللون، وعصبيات الجنس، وبطلت اللصوصية العالمية، وقضي على الاستعمار وعبادة المال، ولن يتحقق ذلك إلا في ظل المبادئ الإسلامية الخالدة، التي تحرم الغزو الاقتصادي، ولا تشرع الرماح إلا لإحقاق حق، أو نشر هداية،

ولا تؤمن إلا بالسلام والأخوة والحرية والقيم الإنسانية الرفيعة، لذا يقول (إقبال) في معرض حديثه عن (عصبة الأمم):

حكمـــة الغـــرب فرقـــة النـــاس

والإســـلام فيـــه توحـــد العمـــران

خبرينـــي اليقـــين: هـــل عـــصبة الأقـــ

وام خـــير أم عـــصبة الإنـــسان؟

ثم يرى (إقبال) أن المسلم الحق، والمؤمن الصادق الإيمان هو الملجأ الوحيد لهذا العالم الحائر الزائغ، فلن تمحى ظلمات الفساد والضلال والتحكم والتسلط والجشع، إلا بأضواء الإسلام، وسفينة الحق الضائعة في هذا العالم -عالم الهوى- لن تجد ربانًا سوى المسلم الحق:

إن هـــذا العـــصر ليـــل، فـــأنر

أيهـــا المـــسلم ليـــل الحـــائرين

وســـفين الحـــق في لجـــج الهـــوى

لا يـــرى غـــيرك ربـــان الـــسفين

****

أنـــت كنـــز الـــدر واليـــاقوت في

موجـــة الـــدنيا وأن لم يعرفـــوك

محفـــــل الأجيـــــال محتــــاج إلى
صــــوتك العــــالي وإن لم يـــسمعوك

كل ما خرج به (إقبال) من دراساته الواسعة، ورحلته التي استغرقت ثلاث سنين، هو اليقين الكامل بأن الإسلام هو الخلاص والنجاة للأمم الإسلامية بوجه خاص، والعالم بوجه عام.

وآب من رحلته عام 1908م حاملًا بذور الدعوة الواسعة التي آمن بها واضعًا الأسس الكاملة، والقواعد الثابتة لذلك.. وسنتكلم عن ذلك في حينه، وسرعان ما اعتذر عن كل عمل رسمي انتدبته الحكومة له، رغم ما في ذلك من جاه ومال.

ولقد تعمق (إقبال) في دراسته للفكر الهندي والإيراني، ونال قسطًا وافرًا من منابع التراث الروماني واليوناني قديمها وحديثها، ونهل قدرًا وافيًا من الثقافة الإنجليزية والألمانية والفرنسية والأمريكية، هذا فضلًا عن الميراث الفكري الإسلامي والعربي، الذي صرف فيه إقبال معظم مجهوداته.

أما اللغات التي أجادها (إقبال) فهي: (الأوردية) و(الفارسية)، وقد كتب بهما دواوينه وكثيرًا من محاضراته وخطبه، والإنجليزية -وكما قلنا آنفًا- أنه كان مدرِّس الفلسفة اللغة الإنجليزية في كلية الحكومة بـ (لاهور)، كما أنه قام

بالتدريس لفترة قصيرة في جامعة (كمبردج)، ولقد ألقى محاضرة باللغة الإنجليزية في (دار الشبان المسلمين) بالقاهرة، أثناء عودته من مؤتمر المائدة المستديرة عام 1931م، ومحاضرة أخرى في دار (المؤتمر الإسلامي) في القدس، كما أنه كان عظيم الإتقان للألمانية والفرنسية، ولكنه كان يعرف العربية والسنسكريتية.

هذا هو (إقبال) العالم الدؤوب على الدوس.

(إقبال) الذي اعترف بفضله وعلمه الهندي وغير الهندي، فلقد استدعاه ملك الأفغان، ليستشيره في الأسس التي يجب أن تقوم عليها جامعة (كابل) المزمع إنشاؤها آنذاك، واستقبلوه هناك أعظم استقبال وأروعه، فلم تنسه روعه الاستقبالات رسالته الكبيرة، ولم تفتنه أعلام التقدير، وزينات الترحيب، عن أن يزاول نشاطه، ويكتب ديوان (مسافر) أثناء هذه الرحلة.

ولا عجب أن يتغنى بشعره أبناء (الأفغان) ويردده أشبال (إيران) في لذة وشغف، ثم يترجمه أحد أبناء (تركيا)، لينعم الترك بهذا التراث العظيم، وهو الدكتور (حسين دانش)، الذي كتب عدة مقالات عن ديوان (إقبال) (بيام مشرق) أي رسالة الشرق.

ومن وراء جبال (الهملايا)، وخلف التلال والهضاب يسارع أحد علماء (الروسيا)، متكلفًا المشاق والأهوال، راكبًا الأخطار

والأوعار حتى يلتقي (بإقبال)، وينقل عنه مبادئه وأصول فلسفته، التي أودعها ديوانه: (أسرار خودي).

أما في (ألمانيا) فقد قام الأستاذ (دايشو روسو) والدكتور (فيشر) الأستاذ بجامعة (ليبزج) وصاحب مجلة (إسلاميكا)، والشاعر الألماني الفيلسوف (هانسي)، هؤلاء جميعًا ترجموا (لإقبال) وكتبوا عن شعره وفلسفته، وقارنوا بينه وبين (جوته) الشاعر الألماني العظيم و(نيتشه)، بل قامت هناك -في ألمانيا- جمعية اسمها (جماعة إقبال) تشرف على ترجمة آثاره، ونشر مبادئه في ربوع البلاد وفي أروقة الجامعات.

وهكذا فعل (اسكاريا) في إيطاليا، و(ميكنري) في أمريكا، و(نكلسون) والمستشرق (براون) في انجلترا، والدكتور (عبد الوهاب عزام) في مصر، إذ كان له الفضل الأكبر في التعريف (بإقبال) في أرجاء العالم العربي وذلك بترجمة بعض دواوينه إلى العربية، (كرسالة الشرق)، و(ضرب الكليم)، و(أسرار خودي)، و(رموز بي خودي)، وبالكتابة عنه.

****

وأخيرًا أكان (إقبال) عالمًا بحتًا، وفيلسوفًا صرفًا، قد ملأت رأسه الأفكار، وغطت أشعاره الصفحات فحسب، أم كان رجلًا يقول ما يعتقد، ثم يعمل بمقتضى هذا الاعتقاد؟.

إن واقع حياته يجيب على كل ذلك، فيقطع كل شك، ويدني كل يقين، فقد طرد (إقبال) ابنه من بيته لما علم أنه يعاقر الخمر، وضحّى (إقبال) بالمناصب العالية والمرتبات الضخمة، لتفرغ لرسالته الكبرى، وآثر أن يعمل في وظيفة مرشد قانوني حر، فيقدم المعونة والإرشاد لكل محتاج دون مقابل، وألحوا عليه في مقاطعة (البنجاب) أن يرشح نفسه عضوًا في المجلس التشريعي هناك، وأقول ألحوا عليه إلحاحًا فليس (إقبال) بالذي يتهافت وراء المظاهر، ويجري خلف المطامع الفانية، ثم تقدم بعد نجاحه بتشريعات تتعلق بالضرائب، التي يرزح تحت أعبائها الفقراء والفلاحون، وبين الظلم الواقع بهم ووجوب تخليصهم منه.

وتقدم بتشريعات للقضاء على الخمر، ذلك السم الزعاف.

وأثناء إقامته في أوروبا لم تستهوه البدع أو يخدعه البريق فينغمس في الشهوات والملاهي.. بل كان يعقد المحاضرات، يتحدث فيها عن الإسلام وبنوده العادلة، وعن اشتراكيته وسماحته المشرقة وعقيدته الشريفة التي تجعل الإنسان لا يحني رأسه إلا لله.. وبكى على أطلال الأندلس ومجدها الإسلامي الغابر، ودعا إلى إنقاذ (فلسطين) من براثن اليهود، والاحتراس من الأحابيل التي ينصبها الاستعمار، وكان ذلك قبل أن تحل بها النكبة الكبرى.

لقد كان (إقبال) عالمًا وعاملًا.

وهذا هو مثل الإسلام الأعلى: علم صحيح سليم، وعمل صادق لوجه الله لا يعرف اليأس ولا الوهن، ولقد كان (إقبال) يلفت النظر دائمًا إلى أن الدين إذا لم تترجم مبادئه إلى أعمال، ونظرياته إلى وقائع، فسيكون إذًا فلسفة مجردة، ولن يكون دينًا أبدًا بأي حال من الأحوال!.



فلسفة.. إقبال..



لكل فكرة تخطر على بال أي إنسان دوافع!..

ولكل فلسفة تنبع في عقل أي عبقري بواعث وأسباب.

وكثير من الفلاسفة قد أدخلوا عنصر الإلهام ضمن هذه البواعث..

والآن، ما هي بواعث فلسفة (إقبال)، والدوافع التي أشعلت هذه الفلسفة، فجعلتها ملتهبة كالنار، حمراء كالدم، قوية كالسيول الجارفة، نابضة بالحيوية والخلود، ناطقة بالأمل والتفاؤل؟..

لقد نظر إقبال حواليه، فماذا رأى؟.

المسلمون يرتعون في بيداء الجهالة، ويضربون في فيافي الغفلة، والإسلام الناصع الحي أصبح عنوان الذلة والفقر والضياع: تلوثت عقائده بفعل الكائدين والمخادعين، وجرى العبث في شرائعه بفعل المتزمتين، لذا أصبحوا محكومين بعد أن

كانوا حاكمين، وأمسوا رعايا مستعبدين بعد أن كانوا سادة أشرافًا، وتلفت (إقبال) حائرًا وكأني به يقول: إذًا فهذا هو الحال ويا له من مآل تعس.

ترى ما هو الداء الذي نخر في أجساد أممنا وشعوبنا، فأورثنا سوء المآل، وذل الحياة؟. وكان أول داء وقعت عينه عليه هو أن المسلمين يخافون الموت، ويحرصون على الحياة بعد أن صاروا مزقًا وأهواء، ونحلًا متباينة...

فلا بد إذًا أن يعودوا إلى (ذاتهم)، لأنها مصدر الحركة والعمل ومصدر النور والحياة، ومركز الإنسانية ومدار الخلود يجب أن يعود الإنسان إلى (ذاته) يقويها ويدعمها، وينفي عنها الخوف والجبن والحرص الغبي، ويردها إلى الطريق الحق، وهكذا آمن (إقبال) (بالفردية) أو (الذاتية) لأنها الأصل ومنها البداية، وإهمال (الذات) هو الجهل بأصل الداء... ورأس البلاء.

وشيء آخر أدركه (إقبال).

إن الناس يهابون الحكام ويخافونهم، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، لكن هذا الخوف، وتلك الهيبة أصبحت ضربًا من العبودية المقيتة، ونوعًا من التأليه السخيف، فلا يكاد يرتفع صوت باستنكار، أو تنادي عقيرة باحتجاج، أو يقف إنسان ليعترض على باطل.. لذلك صار العسف فريضة، والقانون

هوى متبعًا، والمثل العليا مطية للأغراض والشهوات الجامحة، فليس عجبًا أن تذل النفوس، وتصبح أشد طغيانًا من الجاهلية الأولى غير أن أوثان الجاهلية الأولى كانت من حجر أو خشب، أما الأصنام الحديثة فمن لحم ودم، ويصف (إقبال) هذه الحالة قائلًا:

«إن الأصنام مازال المسلمون يعبدونها حتى اليوم، وإن ادعوا الإيمان بالله، وإن لهذه الأصنام صورًا عديدة، وألوانًا شتى.. ويا حبذا لو علم المسلم الذي ينشد الهداية أن سجوده في الصلاة لله وحده، خير له وأجدى عليه من هذا (الشرك الحديث).

وأن السجود لله هو الخير والنجاة، وإن كان ثقيلًا علينا:

تلـــون في كـــل ثـــوب (منـــاة) [1]
وشـــاب بنـــو الـــدهر وهـــي فتـــاة
فهـــذا الـــسجود الـــذي تجتويـــه
بـــه مـــن ألـــوف الـــسجود نجـــاة

فما معنى كل هذا؟

لا معنى له إلا أن المسلمين قد شاب عقيدتهم كثير من الفساد والضلال، فشوهت عقيدة التوحيد، فكان أن اتخذوا من

(1) مناة: صنم كان يعبد في الجاهلية.

قصور أمرائهم وحكامهم ومستعمريهم معابد يطوفون حولها، ويجثون بأبوابها، ويمرغون شرفهم وكرامتهم ومجدهم في ترابها، كما أنهم قصدوا أضرحة الأولياء، وأقبية الموتى، وحثوا إليها المطايا، وزفوا إليها الركبان ضارعين مستغفرين لذنوبهم، ولا ذنب إلا خمولهم، راجين الشفاء والعافية والأرزاق، والشفاء أقرب إليهم من حبل الوريد.

وتيقن (إقبال) أن المرض الثاني والداء العضال الذي انتاب المسلمين، هو فساد التوحيد.

أما الشيء الثالث الذي علمه (إقبال) فقد كان مؤلمًا حقًا!.

إن المسلم إذا نظر لهوان حاله، وضعة قدره صدمته الحقيقة المرّة وهالة الأمر الواقع، وبدلًا من أن ينفض عن كاهله غبار التقاعس والتقاعد، ويقفز من جديد إلى سلم المجد والكفاح تراه يقول: وماذا أعمل؟؟.. ما بيدي حيلة، هذا قضاء الله وقدره، وتلك إرادته ومشيئته، وليس عليّ إلا الرضوخ والاستسلام لأمر الله، فهل أتمرد وأثور على سنن الله وإرادته؟ لا شك أن هذا خبال وسوء أدب ومروق وفسوق!... هكذا يقول المسلم لنفسه دون أن يأخذ للأمر عدّته، ويصاول الحياة ويصارعها، كي يهزم صعابها، ويتغلب على عقباتها، حتى يصل إلى المرتبة التي أرادها الله له.

وفكر (إقبال) في هذا الداء الجديد، أو الداء الثالث، وبعد أن فهم أعراضه ومضاعفاته شخّصه قائلًا: إن هذا هو التواكل.. فالمسلمون ينسون أن لهم إرادة مضمونها الحرية والاختيار لا الجبر والقهر والإرغام، وأن الإنسان مخيَّر لا مسيَّر!..

وإذا شئت أن ترى كيف عرض (إقبال) هذه الصورة في حوار شعري بديع أخذه عن (محي الدين بن عربي)، فانظر هذه القصيدة التي يدور فيها الحوار بين (الله) سبحانه وتعالى، وبين (إبليس) في حضور الملائكة.

إن (إبليس) يظهر أولًا إيمانه بوحدانية الله وقدرته، ثم ينفي عن نفسه الكبر والمروق ويقول: يا رب إنني لم أسجد لآدم إلا لأنك كتبت في علم غيبك أنني لن أسجد فما ذنبي؟.. فيرد عليه الخالق سبحانه بما يفحمه ويربكه فيقول سبحانه، هل عرفت ذلك الأمر وهذا القدر المكتوب.. قبل أن تعصي أم بعد العصيان؟ فلا يسع إبليس إلا الإقرار بجرمه، والاعتراف بذنبه، وأنه ليس بريئًا من تحمل المسئولية، وها هي ذي القطعة شعرًا كما ترجمها (الدكتور عزام):

يـــــا إلهًا أمــــــره كـــــــن

لـــــيس عنـــــه مـــــن محيـــــد

ويــــــل غـــــر مـــــن زمـــــان

ومكـــــــان في حـــــــدود

كيف أستكبر عن
أمرك أو كيف أحيد؟
كان في علمك أني
حائد عن ذا السجود

الخالق: هل عرفت السر هذا
قبل أو بعد الجحود؟

إبليس: بعد، يا من تجلي
به كمالات الوجود

(ناظرًا إلى الملائكة)

خسة الفطرة فيه
علمته ذاك عذر
قال: ما شئت سجودي
أنا لا أملك أمرا
ذلك الظالم سمى
اختيارًا فيه جبرا
إنه سمى رمادًا
شعلة فيه وجمرا

و(إقبال) الذي أراد أن يكون طليعة إيقاظ، ورسول بعث ثائر في هذه الأمة قد هاله أمر عظيم وموضوع ذو خطر، هو أن المسلمين ينظرون إلى ما يعتريهم من آلام، ويكتنف حياتهم من نكبات، ينظرون إلى ذلك كله على أنه عنوان للحظ المنحوس، وسوء الطالع، ويحسبون أن الحياة السهلة الهينة، والنعمة السخية الوفيرة هي الدليل الأوحد على رضى الله وحبّه لعبده، ورحمته به.. لقد أغمض المسلمون أعينهم عن منابع دينهم الأولى، ونسوا أن الله قد يختار أقوامًا، لابتلائه، حتى يرى ماذا سيكون من شأنهم حينما تدلهم الخطوب وتبلغ القلوب الحناجر، ونسوا أن المؤمن الحق يشكر النعماء، ويحمد الله على الضراء ويصبر عليها، ويظل يعمل، ويكافح حتى يخرج من محنته، وقد ازداد معدنه نفاسه، وجوهرة قيمة وقدرًا.

وهذا هو الداء الرابع.. فالمسلمون يستنكفون من الحياة التي يهزها الكفاح ويملؤها النضال، ويهربون من تحمل الصعاب والآلام، وينشدون السكون والدعة ولو عاشوا في أكناف العبودية وخمول الذكر، حتى لكأن الحياة لقمة سائغة، وقنطرة سهلة ميسورة.

أما الداء التالي فقد كان لا يقل خطورة وأهمية عما قد سلف من أمراض.. ففي هذه الظروف العصبية وجدت فئة من الناس

أدركت الهاوية السحيقة التي تدهور إليها مستقبل الأمة، فهالهم ما رأوا وأتعسهم ما جدَّ من أمور، وكان الظن بهم أن يمدوا إلى هؤلاء المترددين أسباب النجاة كي يأخذوا بناصرهم، وينقذوهم من بؤرة الشقاء، لكنهم كانوا على عكس ذلك تمامًا، فقد انقسموا قسمين:

القسم الأول:

راوده اليأس القاسي، فلم يجد مناصًا من أن يسدَّ أذنيه بأصابعه، حتى لا يصل إلى سمعه نداءات الضائعين، واستغاثات الهائمين على وجوههم في أودية الأسى، ويا لها من جريمة!..

والقسم الثاني:

قبع في الصوامع، وودع العمران والسكن، وعاش يعبد الله راهبًا قانتًا لله... ونأى بنفسه عن مهاترات الدنيا ومعارك الحياة، وقنع بخلوته الضيقة عن العالم الرحيب، وأغمض عينيه عن أضوائه البرّاقة المضطربة التي لا تعرف الثبات والهدوء!..

وأمسك (إقبال) بقلمه ليسطر التشخيص للداء الخامس (اليأس والرهبنة).

ولكم صرخ (إقبال) في هؤلاء الواهمين ذوي الآفاق الضيقة، كي يعلمهم أن من لم يذق طعم الآلام لا يستسيغ حلاوة الراحة،

ومن لا يتمرغ في أعطاف الصراع والكفاح لا يدري جلال السلام والحرية، ومن لا يتناول جرعات من الشقاء لا يدرك جمال السعادة، لهذا نراه يقول:

إن حبـــاب خمــــرة الآمــــال لا
يـــــرقص إلا فـــوق أمــــواج الألم
والله في حكمتـــــــــه علمنـــــــا
أن انـــشراح الــــصدر قبلـــه ألـــم

****

آلامنـــــــــــــا إلى العـــــــــــــلا
نعاويهـــا فـــوق مطـــارات النـــسور
الــــــروح سر والحيـــــاة ظلمـــــة
وشـــعلة الآلام لـــــلأرواح نـــــور

هذا بعض ما قال (إقبال) في أولئك الذين ضاقوا ذرعًا بالآلام وتكاليف الكفاح، واعتبروهما لعنة سماوية، وغضبة من الله قد انصبَّت عليهم، أما أولئك اليائسون الذين فقدوا الأمل، وأماتوا الرجاء... فقد قذفهم (إقبال) بأمثال السهام الفتاكة حين قال ما ترجمته:

منحـــت القلـــوب هيامًـــا جديـــدًا
أثـــرت البعيـــد بـــه والقريـــب

ولكـــن خلقـــت بـــأرض بهـــا

نفـــوس العبيـــد بـــرق تطيـــب

وشهر سيف القول في وجه هؤلاء اللائذين في حمى الصوامع والكهوف والخلوات، وكأنه يقول لهم لا تفرُّوا من المعركة، ولا تهربوا من الحياة التي خلقتم لها وخلقت لكم، فتراه يقول:

خـــلا الـــصوفي مـــن حـــرق وكـــد

شراب (ألـــست) معـــذرة البطالـــة [1]

وفـــــر إلى ترهبـــــه فقـــــير

يـــرى في الـــشرع معـــترك البـــسالة

إذا خـــشي الرجـــال وغـــى حيـــاة

فتلـــك هـــي الهزيمـــة لا محالـــة!..

(فالصوفي) الذي تواكل محتجًا بالآية «ألست بربكم...» و(الفقيه) الذي ودع الحياة إلى دنيا الصوامع والعزلة، كلاهما هرب من الميدان، وأشفق من تكاليف الجهاد، فدهمنا الاستعمار، واستغلنّا الحكام، ولم يكن لنا أن نجني غير الهزيمة!..

---

(1) يقصد آية: «ألست بربكم.. إلخ» والمعنى أن الكسالى يلقون بأحمالهم على الله ويلوذون بالخمول.

وكان خاتمة المطاف، وآية البلاء، وشر الداء تلك النزعة العاتبة المجنونة التي تتجه ناحية الغرب وثقافته وحضارته دون فحص أو تمحيص، ومطالبة الناس بالأخذ بها دون قيد أو شرط غير مراعين في ذلك ظروف البيئة، والأحوال الاجتماعية، والتقاليد المرعية، والمعتقدات الدينية، ودون النظر إلى التراث المحلي الذي تناقلته الأجيال في شتى ضروبه وألوانه ومظاهره، فانبثت تيارات الإلحاد والزندقة، وشاعت موجات الانحلال وعدم التقيد بشيء من القيم التي توارثوها، وظنوا أن كل ما أتى به الغرب جميل نافع سواء في النواحي المادية وغير المادية، ولم يدققوا في وسائل الحضارة الغربية ولا أهدافها، أو الركائز التي تعتمد عليها، لأن الشعوب كانت جائعة إلى هذا المتاع المادي.. والرقي العلمي والترف الظاهر بعد أن أنهكها الفقر، وحطمتها الحاجة، وألهبها الطغيان والفساد، وآلمها الجمود والرجعية، فكان أن اندفعت هذا الاندفاع الأرعن وانساقت هذا الانسياق الأعمى.. وأوشكت أن تنسى أن للروح مطالب كما أن للجسد رغبات.

رأى (إقبال) ذلك وهو الشاعر المؤمن، والفيلسوف الدارس، والعالم العامل الذي جاب أنحاء أوروبا، وارتاد جامعاتها ومنتدياتها، ودرس تاريخها وقوانينها ومكتشفاتها ومفاسدها ومفاخرها، فرفع (إقبال) يده عاليًا في وجوه الحشود

الحمقاء، التي أسلمت قيادها للغربيين دون قيد أو شرط، وقال الكثير من شعره في ذلك الموضوع وخلاصته أن سلامة العالم ورفاهيته يتوقفان على.. التوفيق بين حضارة الغرب والشرق، وحضارة الشرق تبتغي فيما آتاها الله الدار الآخرة، ولا تنسى نصيبها من الدنيا، وتوافق بين العاطفة والعقل، والوحي والعلم، والمادة والروح، وهاك قطعة مترجمة من شعره في منظومة (جاويدنامه) تظهر هذا المعنى:

«في الغرب العقل مصدر الحياة

وفي الشرق (العاطفة) قوام الحياة

وبواسطة الحب (العاطفة) يحيط العقل بالحقائق

فيعزز شغل الحب.. انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد

بالتوفيق بين العقل والعاطفة...إلخ.».

*****

وضع (إقبال) هذه الأدواء الستة أمام عينيه... وفكّر (إقبال).. فكّر كثيرًا في الحياة وكنهها، وفي مقاييس الهزيمة والنصر ومعايير القيم والمثل العليا، وفي الخلود وحقيقته، وكان غاية تفكيره وبحثه إيجاد عالم رشيد، وإنسانية مترابطة حانية وحياة رخية سعيدة، وجال ببصره عبر الأجيال وحقب التاريخ، حيث رأى الإسلام.. الرسالة الخالدة بين المد والجزر، وبين

الارتفاع والانخفاض، ثم تلفت إلى العالم الغربي الذي ساد وشاد وحارب وملك بعد أن سفك الدماء وأهدر المثل، فهز إقبال رأسه، وهو موقن أن البداية يجب أن تكون من الإنسان نفسه، من (ذاته)... ذاته القوية التي لا تتيه في الآفاق، ولكن الآفاق هي التي تتيه فيها لأن كل ما خلق في هذا العالم مسخر لتلك الذات القوية النامية:

إنـــــما الكـــــــافر حـــــــيرا

ن لـــــــه الآفـــــــاق تيـــــــه [1]

وأرى المــــــــــؤمن كونًـــــــــا

تاهـــــــت الآفـــــــاق فيـــــــه

ولقد جعل (إقبال) بداية فلسفته، ونهايتها: الإيمان بالله، واتخذه أساسًا.

وبعد هذا العرض السريع لبواعث فلسفة (إقبال)، ما هي إذًا هذه الفلسفة؟

وسأجيب عن هذا السؤال في حذر واقتصاد، وإيجاز بعيد عن التعقيد والمصطلحات العلمية، لأننا الآن بصدد الكلام عن شعر (إقبال) وفلسفته من ناحية معينة، ومن زاوية خاصة تتعلق

---

(1) مأخوذة عن (ابن عربي)، فقد قيل إن مرضعة الرسول لما فقدته لقيها جبريل وقال لها: «لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق، فهذه الآفاق تتيه فيه».

بحركة البعث الكبرى، التي أهتزت لها جنبات الهند وتغير بها مصيرها.

وخلاصة فلسفته أنها إسلامية، وتحمل في ذراتها طاقة البعث لهذه الأمة الراكدة، وأضواء الاستكشاف وأشعة المعرفة التي تزيل الظلمات والغياهب، الناسجة خيوطها حول هذه الملة، الملة البيضاء.

****

هناك فريق من الصوفيين يؤمنون بوحدة الوجود، ويرون أن الفردية وهم وعبث وأنانية وغرور، وليس لها وجود حقيقي على ظهر البسيطة، بل الحقيقة أن الكائنات وحده واحدة مرتبطة، لهذا فهم يرون أن غاية الإنسان الاندماج الكلي في الوجود، كما تندمج القطرة الضئيلة في البحر الخضم الواسع، أو الذرة المتناهية الصغر في كثبان الرمل العريضة الهائلة، ومن هنا كان مذهب الفناء في الله كما يفنى الشعاع الواهي الضعيف، في دنيا لا نهاية لها من الأضواء والأنوار.

وكذلك آمن أصحاب مذهب الفيلسوف (هيجل) بنظرية الوحدة هذه أعمق الإيمان.

وقف (إقبال) إزاء هؤلاء وهؤلاء وغيرهم، وقال:

«لا... بل هذا الزعم هو عين الوهم وعين الخيال والضياع».

«إن هذا الظن مدعاة لذوبان (الشخصية) وانهيار (الذات)، وخمود الحياة وخمولها، وأساس للضعف والوهن، والأرزاء التي اجتاحت الأمة وبدلت حالها.

«إن كل إنسان له كيان ووجود وشخصية قائمة بذاتها، ومميزة عن غيرها تميزًا جليًا واضحًا.

«ألا ترون أن الله واحد وإن اتصف بكل كمال وتنزّه عن كل وصف؟

«ألا ترون أن الكائنات -أي هذا الوجود الكبير بما فيه- مجموعة من الفرديات المتباينة ذات الخصائص المعينة، فهنا أشجار ونبات، وهناك طيور وحيوانات، والأشجار فيها الخوخ والحنطة والصفصاف، بل أن النوع الواحد تختلف أفراده في صفاتها... انظروا إلى الإنسان - هذا أسود وذاك أصفر، وهذا سقيم وذاك سليم!.

ورغم إن لكل إنسان -أو كائن- شخصيته وذاته إلا أن بين هذه الوحدات أو الفرديات نوعًا من التوافق، وضربًا من التطابق، وشيئًا من النسق والنظم، ولا شك أن سعينا الغريزي وكفاحنا الفطري يجعلنا دائمًا نتقدم إلى الأمام، وينقلنا تدريجيًا من الفوضى إلى النظام، أو بمعنى آخر يخلق بيننا ذلك التوافق وذلك التطابق وذلك النسق والنظم.

«ونحن دائمًا في حاجة إلى الكفاح والسعي المتصل ونحن في طريقنا إلى الكمال المنشود والمثل العليا المرسومة، وهذا السعي وهذا الكفاح هما عمل الكائنات، وعمل الأجيال المتلاحقة، وكل جيل عبارة عن حلقة من حلقات نضالنا في سبيل الوصول للكمال، فعمل الكائنات إذًا مستمر متصل «لا متناه» - فالكائنات إذًا حقيقة غير كاملة..» فأنا وأنت لبنة مميزة في بناء الوجود الكبير، وكل لبنة تتعاون مع أختها، وتبذل قصارى جهدها وطاقتها، حتى يظل البناء شامخًا قويًا لا يتزعزع ولا يرتج بل يكون دائمًا في ازدياد مطرد من حيث القوة والمتانة، ومن حسن السمو والارتفاع.

أنا فرد ذو شخصية مميزة.

وأنت فرد كذلك بذاتك الخاصة.

والغير كذلك.

لكننا نتعاون ونتضامن ونكافح كي تقوى ذات كل منا، لكي يسعد الكون وترتقي الإنسانية، ويصل إلى درجة الكمال الأسمى، ومن هنا سميت فلسفة (إقبال) بفلسفة الذات أو (خودي).

ولقد ضرب لنا (إقبال) مثلًا عن الفرد، وعن كيفية سلوكه مع المجموع:

هـــــو في المجمـــــع خـــــال

ومـــــن الحـــــشد طليـــــق

مثـــــل شـــمع الحفـــل في الحفـــل

وحيـــــد ورفيـــــق

مثـــــل شـــمس الـــصبح، فكـــر

فيـــــه نـــــور وبريـــــق

لفظـــــه حـــــر يـــــسير

لكـــــن المعنـــــى دقيـــــق

نظـــــر فيـــــه سـديد

عـــن بنـــي العـــصر سـحيق

إنه وإن كان في مجمع من الناس، إلا أنه متميز بثاقب فكره، وحدة نظره، وحريته في قول الحق والعدل، مثل الشمعة التي تميزت بنورها ونارها، وإن كانت رفيقة الجميع، وفي خضم هذا الحفل الحاشد. فما تعريف الذات أو (خودي) عند (إقبال)؟.

هي حالة من الجهاد المتصل، والتوتر النفسي، والكفاح المستمر، وكل ما يطفئ فيها شعلة الحماس للعمل، ويخمد فيها نوره التوثب، النضال والسمو، فهو قبيح مرذول، أما الذي يقويها وينميها ويدفعها دفعًا إلى الأمام ويقربها إلى الغاية، ويحفظ

عليها حالة التوتر فهو جميل محبوب، ولأزيد القارئ إيضاحًا أقول: إن الحياة إذا خلت من الاجتهاد والعمل والحركة فهي موت وفناء، ولو كانت الحياة مجردة من الرغبة والعمل، فماذا يمكن أن يبقى فيها ليشوقنا إليها؟.. هل يكون هناك من معنى أو حكمة لتلك الكنوز من المعادن المخبوءة تحت الأرض في الطين والتراب، والتي تحتاج إلى الحفر والجلد، كي نستخرجها؟.

لا خير في حياة نقضيها في صمت وجود.

ولهذا قال (إقبال):

«إن الذات تقوى بتوليد المقاصد، وإيجاد الرغبات وخلق الأماني» فإذا ما كان للإنسان غاية يسعى إليها، فلا شك أنه سيجد ويتعب للوصول إليها، ولا بد له أن يتغلب على ما يعترضه من عقبات، وما يدهمه من صعاب، ويعالج أمرها بما أوتي من قوى، وصادق عشق [1]، لأن الغاية جميلة [2] وتهون إزاءها كل الصعاب والآلام.

أما (شوبنهاور) الفيلسوف الغربي فقد رأى أن الحياة نهايتها الموت، وأنها طمع وجشع، والإنسان لا تقف آماله عند حد، إنه جائع دائمًا ظامئ دائمًا، وطموح دائمًا، يتوق إلى المجد، ويتشوق

(1،2) سنتكلم عن العشق والغاية فيما بعد.

التسلط والسيطرة، وماذا بعد ذلك؟.. إما أن يثوب بالحسرة والفشل، فيسخط ويلعن سوء الحظ، وفساد الطالع، وقسوة الأقدار، أما إذا نال شيئًا، وحقق أمنيته، فلن يستمتع بها أكثر من أيام أو سنوات معدودة، أو عمرًا قصيرًا، ثم يعقب ذلك قبر يفغر فاه ليلتهم الفريسة ويحطم كيانها ويسحق عظامها، ويمتص دماءها، وكأن لم تكن شيئًا.. لكن (إقبال) ثار على زعمهم هذا، وكأني به يقول لهم:

«ويحكم!.. أمن المعقول أن يخلقنا الله عبثًا؟.. أمن المعقول أن تظل الشمس والسموات والأرض مدى الدهر وطول الأبد، ثم نندثر نحن بهذه السرعة فلا تقوم لنا قائمة بعد ذلك؟.

كلا، إن الخالق سخّر لنا الكواكب والشمس والقمر ومختلف الكائنات، وسخّر القوى المادية لنتوسل بها إلى ما تريد، وتتخذها مركبًا يسرع بنا نحو الغاية.إذا كان هذا العمر الطويل من نصيب هذ الأكوان المسخرة لنا فما بالك بنا -ونحن أشرف قدرًا، وأعلى منزلة منها- أنمضي هكذا سريعًا ونودع الحياة إلى غير رجعة؟.. ليس هذا صحيحًا!.

هناك شيء اسمه الخلود.

أجل، الخلود.

فنحن أسمى من أن تكون حياتنا ومضة زمنية قصيرة لا رجعة لها، ونحن أيضًا أعظم من أن نذوب ونماع في بحر الوجود العريض.

وما الموت إلا البرزخ الذي تتخطاه إلى عالم الخلود، وما القبر إلا الزورق الصغير الذي يجعلنا إلى شاطئ السلام الأخضر الأبدي، فالجسم قد يبلى أو قد يموت، إلا أن (الذات) تأبى المات، وترفض الفناء، لأنها خالدة:

إن صانت الذات المتينة نفسها
أعيت على الأيام كل ممات

ولقد وصف (إقبال) عقيدته تلك وعقيدة (أفلاطون) -التي تشبه عقيدة (شوبنهاور) -فقال:

أفلاطون: يبصر الموت عاقل، فحياة
كشرار بجنح ليل يشب

إقبال: ما إلى الموت والحياة التفات
مقصد (الذات) رؤية الذات حسب

إن (أفلاطون) يرى الحياة كالشرارة الخافقة في جنح الظلام، سرعان ما تلفها أكفان العدم، أما (إقبال) فلا يلتفت إلى حياة أو موت، بل جل همه أن تقوى ذاته، وتظل في مدارج سموها

ورقيها حتى تحظى برؤية الذات المتكاملة المنزهة، التي لا شبيه لها، ألا وهي الذات الإلهية: ففي ظلالها يرفرف الخلود، وتقف الغايات والآمال، ولذلك يقول (إقبال):

«غص في البحر، وحارب الأمواج، فإن خلود الحياة في الكفاح».

ثم يضرب (إقبال) عشرات الأمثلة التي ينتزعها من الطبيعة التي أحبها ليدلك على قضية الخلود، فيقول: إن انطفاء النجوم بشير بانبلاج الصبح، وتبديد الظلام، مثل موتنا الذي تعقبه الحياة الخالدة، وانتهاء عهد البراعم بداية لعمر الزهر:

فناء (ملايين) النجوم مبشر
بأضواء شمس في السماوات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة
بخمر حياة في الخلود تجدد

****

وتوديع أيام البراعم مؤذن
بخلق الزهور الباسمات جمالًا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر
فإني أرى فيه السكون محالًا

وليس سوى التغير في الكون ثابت
يغير حالًا ثم ينشيء حالًا

إن البذرة يدفنونها في ظلمات الأرض وقبر التراب، فهل تراها ماتت، وغشاها البلى؟.. وهل انطفأت نيران حياتها، مع طول بقائها في ظلمات الأرض؟... كلا.. لقد ألقت عن كاهلها ثقل الموت، واستعادت حياتها من جديد، وتوشحت بأجمل الأبراد، وأحلى الأثواب، وخلقت من موتها حياة جديدة:

لقد دفنوا في التراب البذورا
فلم تفن في لحدها الهامد
ولم تنطفىء نارها في الحياة
على طول مرقدها البارد

****

لقد نسجت الحياة القباء
وصاغت من الزهر أبهى حلاه
نما غصنها زاهرًا واستعادت
من الموت تجديد ذوق الحياة

****

وإذا كـــــان الخلائـــــق نبــــامو

س يرينــــا الــــصباح بعـــد المـــساء

فكـــــذا تـــــذهب الحيــــاة ولكــــن

بعـــد ليـــل الحـــمام صـــبح البقـــاء!

إن من يظن أن تلك الحياة أيام معدودة، لن يكترث بعبودية أو حرية، بل سيقبل الحياة على علاتها، إذ كل همه أن تمر مرورًا وتندثر اندثارًا، ما دامت بلا غاية ولا فائدة ترجى من ورائها، فكان لزامًا على (إقبال) أن يخنق تلك التيارات القاتلة القذرة في مهدها، فأخذ العدة لذلك وتهيأ بالسلاح إلا وهو فلسفته الخالدة (فلسفة الذات) التي ذكرها في ديوانه (أسرار الذات).

ثم ماذا يقصد (إقبال) بكلمة العشق،التي تتردد كثيرًا في شعره؟.

يقول (الأستاذ أبو النصر الهندي):

«إن العشق في مفهومه المطلق هو الشيء الذي يقوي الذات وينميها، ويدفعها إلى الكمال الخالد، والعشق معناه جذبك الشيء أو طلبك إياه، لتجعله جزءًا من نفسك، وأسمى صور هذا العشق وأعلاها وأفخمها هو توليد المقاصد، هو خلق القيم والغايات ثم العمل على تحقيق هذه المقاصد والآمال».

ولقد دلل (إقبال) على أن هذا العشق بمفهومه الحق يدعنا نؤمن أيضًا بمذهبه في (الفردية)، لأنه يعتقد أن العشق يجعل الطالب فريدًا والمطلوب فريدًا أيضًا، فكيف ذلك؟ إنك إذا طلبت أو عشقت شيئًا وتمنيته فإن غيره لا يرضيك ولا يروي غلتك، لذلك فإن ما تطلبه وتقصده فهو فريد في ذاته -مثلك تمامًا- إذ أن غيره لن يقوم مقامه في إشباعك وإرضائك.

فالعشق -كما ألمحنا سابقًا- يقوي الذات، والاستجداء يضعفها، ويهرق ماء حيويتها وكيانها!

إنه وقود يثير الحركة والتدفق والتدفع، ويشعل الحماس ويؤجج العاطفة. وهو الطاقة التي إذا انطلقت لم تعقها السدود ولا القيود، لأن الذات العاشقة فوق الزمان والمكان، وهي القدر وهي القضاء، فاستمع إلى (إقبال) وهو يتحدث عن معراج الرسول، فيقول:

«إن الذرة الضئيلة الهزيلة إذا سرى في كيانها الشوق لاقت الصقر الجسور، ساخرة منه هازئة بقوته، فيفرّ من أمامها، ولا عجب في ذلك، فإن الحماس قد قلب أنفاسها الوادعة إلى شرر متقد، وهكذا المسلم الحق إذا ما اعتصم بالشوق والعشق وكانت له غايات ومقاصد أصبح كالسهم المنطلق الذي تسمو

غايته عن التوافه والصغائر، فهي غاية لا شبيه لها غير الكواكب، في علوها، وفي المعراج أسرار هذا العشق، ومغزى قوة الروح العاشقة:

وذرة طـــار فيهـــا الـــشوق صـــاعدة
تغـــير في عرصـــات الـــشمس والقمـــر
يـــا رفقـــة المـــرج.. تلقـــى الـــصقر مقدمـــة
دراجـــة تمـــلأ الأنفـــاس مـــن شرر
المـــسلم الـــسهم والأفـــلاك غايتـــه
سرائـــر الـــروح في المعـــراج فـــادكر

إن الإنسان -بعاطفته الممزوجة بالعشق، وبقلبه المملوء بالشوق- يرى ما لا تراه العين المجردة، ويدرك ما لا تدرك الحواس الظاهرة.

والعشق هو الذي يثير الرغبة في الكائنات، ويوقظ فيها جمرة الحياة، فتحس بنعمتها وجمالها وروعتها، وغاية العشق تقويه الذات ورقيها، والسير بها قدمًا نحو الحرية والكمال الخالد، وغاية العلم أن يبرز لنا قليلًا من الصفات التي قد لا تثبت على حال ولا يستقر لها قرار، لأن العلم محض تساؤل حائر، وفي شك دائم، ولكن العشق جواب رائع لاستفساراتنا وتساؤلنا، حقًّا إنه جواب خافٍ على بعض المغرورين والمخدوعين

والنائمين، لكن تدركه القلوب الواعية، والأرواح المتوثبة الذكية .

ألا ما أروع العشق وأحلاه!... ألا يكفي أن تكون معجزته ملكًا خالدًا، وسلطانًا سامقًا تعنو له الكائنات؟... ولا أدل على بزوغ هذا الملك ورسوخه من ذلك الفقر [1] الغنى، وهذا الدين -دين الله- الذي يسبغ الحب والسعادة على الوجود.

لقد علمنا العشق أن الرضوخ للراحة والاستسلام في جوف المنازل وعلى الفراش الوثير، علمنا أن ذلك في شرعته حرام... وعلمنا أيضًا أن ركوب الأهوال وامتطاء الأخطار واقتحام الصعاب، ومغالبة أمواج البحر ومصارعتها، هي الحلال في سنّتنا، الواجبة في شريعتنا، وما عدا ذلك: من راحة وإخلاد للهدوء والسكون، فهو ضعف، ووهن لا يرضاه الله، ولا تقرُّه شريعتنا الغرّاء:

قــــال لي العلـــــم غـــــرورًا
«إنـــــما العـــــشق جنـــــون»
قـــــال لي العـــــشق مجيبًـــــا
«إنـــــما العلـــــم ظنـــــين»

(1) سنتكلم عن معنى الفقر في شعر (إقبال) فيما بعد.

لا تكن سوس كتاب

يا أسيرًا للظنون

فمن العشق شهود

ومن العلم حجاب

من لهيب العشق ثارت

ثورة في الكائنات

وشهود الذات للعشـ

ـق، وللعلم الصفات

ومن العشق ثبات

وحياة وممات

علمنا سؤال جلي

عشقنا خافي الجواب

معجزات العشق ملك

زانه فقر [1] ودين

وعبيد العشق أدناهم

له عرش مكين

(1) سيأتي تفسير معنى فقير فيما بعد.

ومـــــن العــــــشق زمــــان

ومكــــــــان و(مكــــــــين) [1]

إنــــــما العــــــشق يقــــــين

وبــــــه يفــــــتح بــــــاب

إلفــــــة المنــــــزل في شرع

مــــــن الحــــــب حــــــرام

خطــــــر البحــــــر حــــــلال

راحــــــة الســــــرب حــــــرام

خفقــــــة الــــــبرق حــــــلال

وفــــــرة الحــــــب حــــــرام

علمنــــــا نــــــسل كتــــــاب

عــــــشقنا أم الكتــــــاب

ويلاحظ أن (إقبال) لم يغمط العلم حقه بل أثبت له فائدته العظيمة، وجدواه التي لا نستطيع أن ننكرها، وليس هذا بغريب من (إقبال) الذي كان عالمًا كبيرًا وفيلسوفًا مقدامًا، غير أنه أراد لهذا العلم الكافر أن يعلن إيمانه بالله، ويسير جنبًا إلى جنب مع

(1) هو من يحل في المكان، وهو لا يستعمل في اللغة العربية كثيرًا.

العشق أو الإلهام فيسعد كل منهما بجوار الآخر، ويسعد العالم من جراء ذلك الوئام. فالعلم وحده مضل كافر مغرور لا غنى له عن الدين، كي يكبح جماحه، ولا غنى له عن العاطفة الطيبة كي ترقق حاشيته، فإذا كان مع هذا العلم عشق وإيمان وقلب فسينتج من هذا كله (إبراهيم) جديد يحطم (أصنام) الضلال والفسوق والعصيان.

العلـــم إن لم يـــضف نجـــوى الكلـــيم إلى
رأي الحكـــيم فـــما للعلـــم مـــن قـــدر

لكن كيف يوجد العشق؟

إن ذلك يكون -كما قال (إقبال)- بحبنا النبي ﷺ، لأن محمدًا كانت سيرته وأخلاقه المثل الأعلى، وكان بأقواله وأعماله الإنسان الكامل مع الحرب والسلم، مع الأصدقاء والأعداء، وبمعنى آخر كانت أخلاقة القرآن، ومتى فهم الإنسان هذا الفهم عن (محمد) ﷺ، ووعى كنه رسالته التوحيدية السامية، ثم أتبع الفهم والوعي بعشق صاحب هذه الأفضال والميزات، فقد علم مدى العشق ومعناه عند (إقبال).

ولا شك أن حبك لمحمد، وعشقك إياه، سيدفعك حتمًا إلى السير في طريقه، واقتفاء أثره في حياتك، وهذا هو الهدف.

ويقول (إقبال) في ذلك:

«كل من يكون متاعه عشق (المصطفى)، يكون البر والبحر في طرف ذيله»...

ولفلسفة (إقبال) مراحل ثلاث:

هذه المراحل الثلاث يجب أن يمر بها الإنسان حتى يصل إلى الغاية التي كان (إقبال) ينشدها وهي خلافة الله في الأرض.

المرحلة الأولى: التي يجب أن تمر بها (الذات) هي خلق المقاصد، وتوليد الرغبات.. وهذه هي صفة الحياة والدافع إليها، فالحياة بلا هدف ركود وموت، ويقول الأستاذ (أحمد برويز) صاحب (معارف القرآن) في هذا الصدد أن من يتدبر القرآن الكريم، يبدو له جليًا أن الإسلام عبارة عن نظام حياة يسمى دينًا.

فقد بيّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد، وحدّ حدودًا، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد، غير متعد هذه الحدود وهذه المقاصد، والحدود لا تتبدل فيه حقائق أبدية، وقيم للحياة خالدة.

فالحياة إذًا آمال متفتحة نابضة، وغايات نبيلة سامية.

أما المرحلة الثانية لتطور الذات وارتقائها فهي مرحلة النضال المستمر والكفاح المتصل، أو الجهاد الذي لا يني.. لماذا؟.. لتحقيق الغابات والأهداف والمقاصد، التي تحدثنا عنها

في المرحلة الأولى.. فلن تموت أُمة -أو فرد- إذا ما اعتصمت بالكفاح والصبر، ولن يهلك شعب إذا ما تسلح بالجد والمثابرة، ولن تبلى حضارة إذا ما تحصنت بالعمل الخصيب المنتج والروح القوية الملتهبة.. وعلى الإنسان أن يسخِّر الكائنات المادية الطبيعية، كي تساعده في كفاحه هذا، وأن يتخذ منها وسائل ومركبات ليستعين بها على العقبات والمشاق، فما هذه الأكوان، إلا من أجل الإنسان وخدمته، وما هذه العوالم المادية إلا رهن مشيئته، لهذا يقول (إقبال):

الأرض لا تخفـــي حقيقـــة جـــوهري
أنـــا مقـــصد التقـــدير في الأكـــوان
وحقيقتـــي نـــور فـــمالي سابحًا
في لجـــة الظلـــمات والأشـــجان

****

أنـــا أمـــة فـــيها أريـــد لأمتـــي
وولايتـــي دنيـــا مـــن الأجيـــال
وأرى بمنظـــار الحقيقـــة كـــل مـــا
يبديـــه في الحـــق الـــصريح خيـــالي

****

فـــاخلق لروحـــك مـــن زئـــيرك نـــشوة

في المجـــد ترهـــب في العـــرين أســـودًا

واجعـــل نـــشيدك قـــول ربـــك (لا تخـــف)

حتـــى يهـــاب الـــبرق منـــك رعـــودًا

والعشق أو الهيام، هو وقود هذه المرحلة المهمة.

ولقد شرط إقبال هذه المرحلة بثلاث شروط:لكل شرط منها مغزاه ومعناه في تقوية الذات وتربيتها، ومن المفيد أن نذكر هذه الشروط الثلاثة، قبل أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة:

(أ) الشرط الأول: هو الإطاعة والانقياد لأوامر الله سبحانه، العمل على تنفيذ ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لأنه هو الخالق الأعظم، الذي يدري كنه تكويننا، وسر خلقنا، ودقائق طبيعتنا، وخفايا سلوكنا ومشاعرنا وعواطفنا.. ثم أنه -جل وعلا- العليم بما ينفعنا والبصير بما يضرنا والحكيم الذي لا يخطئ في تقدير... وشتان بين قدرة المخلوق الضعيف الواهي وعظمة الخالق القوي الجبار!

ولا شك أن طاعة الإنسان لربه إذا كانت عن عقيدة ثابتة وإيمان راسخ فهي تملأ القلب سعادة ونورًا، وتغمره حيوية وإشراقًا مما يسهل عليه تكاليف هذه المرحلة ونفقاتها - مرحلة الكفاح والنضال.

فلو تصورنا مجتمعنا شأن كل أفراده طاعة الله، والعمل في حدود شرائعه وأحكامه، فسنجد أن مثل هذا المجتمع لن يحدث فيه تصادم المنافع الخاصة وتصارع المكاسب الفردية، بل سيكون مجتمعًا متفاهمًا متوائمًا.. يعيش في ظل المودة والسلام، ويستمرئ الكفاح والنضال!

(ب) الشرط الثاني: هو ضبط النفس وهو وثيق الصلة بالشرط الأول... إن النفس لها نوازع وأغراض، وتحتدم فيها مشاعر ومطالب وتعتمل فيها شهوات ورغبات، فلو أطلق لها العنان فسارت بلا كابح يكبحها، أو منظم ينظمها وينسقها، كانت النتيجة الحتمية شراء وبلاء!.

لهذا كان من الضروري أن يوضع لهذه النفس الحدود التي تلزمها الجادة، والرياضة التي تعودها على السلوك المستحب، والنظام المرغوب فيه، وليس هذا معناه كبت الغرائز، والحكم بالإعدام على الطبائع الفطرية.. وإنما المقصود من ذلك تهذيبها، أو إخراجها في ثوب لائق، وإبرازها بطريقة منظمة مشروعة والمحافظة عليها وتوجيهها الوجهة السليمة التي تدفع إلى الأمام دائمًا فتساعد ولا تعوق، وتسمو ولا تنحط!.

بهذا يتم التعادل والتوازن على وجه ما، في تلك الذات التي يحتشد فيها كثير من الصفات المتناقضة المتضادة، وبغير هذا

الشرط -ضبط النفس- يحدث التنافر والتضارب بين صفات الذات ومقوماتها.. فتكون النتيجة سيئة.

ولا بد أن إقبال قد فكر كثيرًا في معنى الحديث النبوي الشريف الذي قاله الرسول لأصحابه حينما عادوا من الحرب: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قالوا: «وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟. قال: جهاد النفس»!.

وبهذين الشرطين سالفي الذكر -طاعة الله وضبط النفس- تصفو النفس من أكدارها، وتنقي الأفكار من أدرانها وأوشابها، أي أن الإنسان يتطهر قولًا وعملًا، ويصبح قاب قوسين أو أدنى من الشرط الثالث وهو:

(ج) نيابة الله في الأرض، ونيابة الله لا تعني الحلول محله سبحانه لأن ذلك يستلزم خلو المحل وانعدام شاغله أولًا، كما يقول الفلاسفة، وإنما يعني نيابة الله القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله وشريعته -أحكام القرآن- وهذه القوة التنفيذية تتحلى بالعدل والرحمة وبعد النظر والإيمان العميق وتتجلى في الذات الكاملة القوية، التي تعتبر كل ما يقويها خيرًا محضًا وكل ما يضعفها شرًا محضًا، ويصور (إقبال) الذات في هذه المرحلة تصويرًا دقيقًا فيقول: إن الذات آنذاك ستكون خالدة باقية وليست كلمات النجوم الفانية، وإن محضرها وغيبتها كلاهما

خير بركة وأنها بريئة من العبودية والرق لغير الله، فتصبح (الذات) سيدة للإنس والجن، ولا غرابة في ذلك، فهي مكان النيابة لله عز وجل.

رأيت الكواكب لمحات نور
وذاتك (بالعشق) رهن خلود
تعالى ضميرك عن كل لون
فعفت من اللون كل القيود
وغيبة (ذاتك) ذكر وفكر
ومحضرها شعرها والنشيد
إذا أضنت الروح آلام رق
فلأنك عبد رهين سجود
وإن عرفت قدرها كنت حقًا
على الإنس والجن رب الجنود

وبانتهائنا من الشرط الثالث نأتي إلى المرحلة الثالثة، هذه المرحلة هي مقام المؤمن الكامل، صاحب الإرادة والاختيار، الذي يغلب الدنيا ولا تغلبه، ويقهر الوجود ولا يقهره، ولا يهاب الموت بل يبتسم له ويعتبره البرزخ إلى عالم الخلود الأبدي... إنه المؤمن الذي يسخر الكائنات، ويخضع له

الوجود، ويملك الكثير من عرض الدنيا، لكنه لا يستهويه أو يغريه أو يستعبده بل هو مع ملكيته للدنيا طليق منها، حر من قيودها وإغرائها، وهو ما يعبر عنه (إقبال) بالفقير أو القلندر (الدرويش) إنه سلطان الوجود في حوزته الكثير لكنه في غنى عنه، لهذا قد يكون الإنسان ملكًا ذا خدم وحشم، ومال وفير، وسلطة محدودة، لكنه (بذاته) القوية القانعة فقير أو قلندر، وهذا معنى كلمة الصمد، وهي إحدى صفات الله تعالى.

ومثل هذا المؤمن الكامل يظل يصعد في مدارج السمو والرفعة، محاولًا أن يتصف بصفات الله، ومحاولًا التقرب بصفاته الربانية إلى الذات المطلقة.. ذات الخالق الأعظم، وهذا مصداق الحديث: «تخلقوا بأخلاق الله»... مصداق الآية: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران:79].

عندئذ إذا نطق هذا المؤمن الكامل، الذي يشق طريقه اللانهائي إلى الكمال، إذا نطق فبالصدق، وإذا أتى عملًا كان صوابًا، وإذا حكم حكمًا كان عدلًا وحقًا، وإذا دقق النظر أدرك حقائق الأشياء.. فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حديث قدسي عن رسول الله ﷺ: «من عادى لي وليًا آذنته بالحرب، وما تقرّب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،

ويصبره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بهـا، ولـئن سـألني لأعطينه، ولـئن استعاذ بي لأعيذنه».. (رواه البخاري).

تلك هي المرحلة الأخيرة لتربية (الذات)، الجماعة التي تتكون من أفراد تلك صفاتهم هي الأمة المسلمة الحقة، فالأمة المسلمة في نظر (إقبال) مجموعة من الذوات الكاملة أو التي في طريقها إلى الكمال، ومثل هذه الأمة جديرة بقيادة البشرية إلى سبيل السلام والنور والحب والخير، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110].

وفي مثل هذه الأمة المثالية يقول (إقبال):

«إنها تعلو فوق الأمم، لأنها أمة نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق، لأن النوم والتعب محرمان عليها.

إنها في البساتين عندليب حسن التغريد، وفي الصحاري باز خفيف سريع الانقضاض.

الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطانًا، كما أن الفقير فيها أمير على الرغم من كونه (درويشًا).

وفي قصيدته (طلوع إسلام) يقول:

أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها.

فهيا اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الأوهام.

إن الدنيا تفنى ولكنك أعظم خلودًا من الدنيا

لك مجد الأزل ولك نعيم الأبد أيضًا وأنت رسالة الله الأخيرة في الأرض لذلك فأنت موصول الدوام.

اقرأ مرة أخرى في سيرتك الأولى، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة، لأنك أنت المنشود لتسود العالم مرة ثانية. هذه هي مقاصد الفطرة الأولى ورمز الإسلام الحقيقي: أن تملك العالم بالأخوة وتحكمه بالمحبة، ما الذي محا استبداد (قيصر) وشدة (كسرى)؟.

أكانت هناك في العالم قوة تحارب الجبابرة سوى قوة (علي) وفقر (أبي ذر) وصدق (سلمان)؟.

إن نظرة المؤمن تغير الأقدار».

تلك هي الخطوط الرئيسية لفلسفة (إقبال)، فلسفة القوة والبعث والأمل والتحرر والخلود.

فهل كانت هذه الفلسفة دواء للأمراض القتالة التي انتابت الأمة الإسلامية المضيعة أم لا؟

وهل استطاع (إقبال) أن ينفخ في نفير البعث فيوقظ النيام ويحيي الرميم؟

❊ ❊ ❊

إقبال.. والفن



الإنسان.. ذلك الكائن العجيب.. ما طبيعته؟ وما كنهه؟

إنه قبضة من تراب شرفتها نفحة قدسية من روح الله أو أضاء ظلمتها الأرضية ومضة من نور الله القدسي الأسبق، فنتج عن ذلك هذا المخلوق الذي تلتقي فيه روحانية السماء، ومادية الأرض، فصارت الحياة معركة دائمة لا ينتصر فيها إلا من عرف ذاته، وبدأ رحلته من نفسه!.

من هذه الزاوية نظر (إقبال) إلى الحياة والناس ثم كون آراءه ومعتقداته على أساسها، فكانت فلسفته التي ذكرنا موجزًا لها.

الفن:

ما هو؟. وما غايته؟.

إنه ذلك الإنتاج الفذ، أو العمل الرائع الذي تخرجه عقول ذات ميزة واستعداد خاص والذي ينبع من صميم الوجدان النابض، والشعور الواعي والذي يصور مكنونات الصدور ومخزون الأفكار في براعة وإبداع والذي يرسم للحياة صورًا ناطقة صادقة.

فالفن باعث للنور في دياجي الحياة، مرسل للبهجة في آفاقها حامل لمشعل الأمل والهداية في جنباتها، جاعل من مادتها الثرية الفريدة متعة للنفس، وسعادة للروح، وتسلية لها في حياتها الصاخبة -فما قيمة الفن إذا لم يغرد للمكافحين أناشيد البطولة؟. وما جدواه إذا لم يفتتح الآفاق في وجود البائسين، ويوسع الآمال أمام الضائقين المتكدرين، وما نفعه إذا لم يأخذ بيد الحائر؟. فالفن بألوانه المختلفة هو الزاد الروحي والشراب المعنوي لهذه الجموع الزاحفة نحو الكمال في طريق الخلود الأبدي.

لهذا فالفن نور وهداية وغيث وغوث ورفيق وأنيس ولهذا كانت غايته خيرًا محضًا وهنا يلتقي الفن بالدين ويضع يده في يده ويسمو بالإنسانية نحو القمة المرموقة والآفاق الرحيبة التي تموج بما يسعد الحياة ويجعلها جديرة بالاحترام والحب.

أما أولئك الذين يؤمنون بمذهب الفن للفن دون التقيد بغاية معينة أو هدف خاص، ودون الالتفات إلى الناحية الخلقية فقد كان إقبال ينفر منهم بطبعه لأن المسلم محاسب على كل ما يكتب ويعمل ويقول فلا تنفعه المتعة الفارغة، ولا يتفق مع مبادئه إلقاء الكلام جزافًا باسم التعبير عن لذات والترجمة عن شتى الأحاسيس.

الفن والذات:

من هنا كان الفن يبعث في الذات والقوة، ويجمل لها الأماني والآمال ويبعث فيها الحرارة والعشق والنزوع إلى الترقي، ويحررها من أصفاد الأوهام ويخلصها من قيود التردد والخوف، مثل هذا الفن الذي يعشقه (إقبال)، ويدعو إليه فناني عصره، فالشعر إذا كان لإزجاء الوقت والمتعة العابرة فلا كان ولا كانت أوزانه:

الـدين والفـن والتـدبير والخطـب
والـشعر والنثـر والتحريـر والكتـب
إن تحفظ (الـذات) هـذي [1] فالحيـاة بها
أو لم تطـق ذاك فهـي الـسحر والكـذب
كـم أمة تحت تلك الـشمس قد خزيت
إذ جانب (الـذات) فيها الـدين والأدب

حتى الغناء لا بد أن يغذي الذات بعناصر القوة والبقاء، فكيف نعزف ألحان التشبيب والغزل المائع ونحن في معركة نحاول فيها أن نتمسك بأهداف حضارتنا وأمجادنا وديننا؟

(1) يقصد الأشياء المذكورة في البيت الأول.

أليس من العار والخجل أن تختلط قعقعات السلاح بمعسول العبارات والكلمات المثيرة للحيوانية الكامنة فينا؟ لهذا يصيح (إقبال) قائلًا:

إن سرت في اللحــــون دعــــوة مـــــوت

حــــرم النــــاي عنـــدنا والربـــــاب

والرقص عند (إقبال) ليس كما يزعم الغربيون حركات بهلوانية وخصورًا تلتف حولها سواعد، وصدورًا عارمة بالشهوة تلتقي بصدور، وإبراز للمفاتن وإثارة للكامن من الغرائز.. فليس الرقص بصورته المادية الظاهرة، بالذي يرضي (إقبالاً) لأنه خلاعة ومجون، لكن للأرواح رقصًا من نوع آخر، ونشوة من نوع غريب، قوامها ذات كاملة قوية تعرف الطريق إلى الله.

دع لأهـــل الغـــرب رقـــصًا بجـــسوم

إن رقــص الــروح مــن ضرب الكلـيم [1]

فبهـــــذا الــــرقص ســــلطان وفقـــــر

وبـــــذاك الــــرقص هــــم لا يــــريم

(1) ضرب الكليم: معناه الأصلي هو ضرب (موسى) الحجر بعصاه ليفجر الماء من الصخر.

وما قاله (إقبال) في الغناء والرقص.. قاله أيضًا في الموسيقى والتصوير وغيرهما، فالفن يجب أن يجيش بها يسمو بالفطرة، ويصقل ذات الإنسان، ويهذبها.

(إقبال) والشعر:

إقبال شاعر فيلسوف، فكيف التقى الشعر بالفلسفة في صعيد واحد. فقد زعموا أن الشعر خيال هائم لا يعرف القيود والبنود إلا قليلًا والفلسفة وقائع وحقائق لا خيال في منهاجها بل منطق وتسلسل وإيجاد مسببات ثم الانتهاء إلى نتائج.

الشعر لين وادع رقراق، والفلسفة جامدة صلبة.. الشعر يسكر العواطف، ويداعب القلوب، ويهز الأرواح، والفلسفة تتخذ طريقها إلى العقل تحاوره وتداوره، وتورثه الكد والتعب - الشعر تحليق ونشوة- أما الفلسفة في الجدول والقضايا المردودة وغير المردودة، والمزاعم المنقوضة وغير المنقوضة، لكن مهلًا!

إذا كان الشعر كما يقولون فهو إذًا فقاقيع لا تلبث أن تذهب جفاء، وإذا كان تحليقًا هنا وهناك بلا هدف أو غاية باسم الخيال الخصب والمشاعر العظيمة، فقد ظلموا الخيال، وتجنوا على الشاعرية.

وقد يقول قائل: فماذا يراد للشعر أن يكون؟

أيريدون أن يجعلوا منه هو الآخر فلسفة جامدة سقيمة الأوزان ضحلة الخيال.. عاجزة عن التحليق؟

فنجيب قائلين: إن الصورة المرسومة ليست مجرد خطوط وألوان مختلطة بلا دلالات، أو معان معينة، والشعر كذلك تنتفي عنه صفته إذا كان قوافي وأوزانًا مجردة وجموحًا في الخيال فحسب.

فحياة الشعر في فكرته السامية، وجمال الأوزان في معانيها الرائعة، وحسن القصيدة في دقتها ونظراتها الصادقة، وخلود الإنتاج وعظمته في ترجمته الأمينة عن الوجدان، ولذا يقول أحد مؤرخي (إقبال):

... والحقيقة أن التفرقة بين الشعر الوجداني والشعر الفلسفي ضئيلة، لأن كليهما يعبر عن عواطف الشاعر وأحاسيسه، وليست هناك قصيدة عظيمة دون أن تتضمن معاني وأفكارًا أساسية ثم أنها لمقدرة عظيمة أن تثبت أفكارك في ثوب شعري جميل!

ويقول أحد أدباء الروس المعاصرين (روشكين): «إن أعظم فن هو الذي ينقل للإنسان أعظم عدد ممكن من الأفكار بأي وسيلة من الوسائل».

وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفة محضة فننقله بذلك من رياض الزهر وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى

مجالس الجدل، وصوامع السفسطة والخوض وراء الغيبيات التي لا طائل تحتها.. لكنها يريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر، وصادق النظرات وحقائق الوجود وكنه الكائنات وأن يناجي النسائم ويصقل العقول ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات. إن (إقبالًا) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات.. يقول (كوليريج) الشاعر والناقد الإنجليزي:

«لن يكون الإنسان شاعرًا كبيرًا وناظمًا مجيدًا دون أن يكون في نفس الوقت فيلسوفًا واعيًا ومفكرًا دقيقًا، لأن الشعر أريج علم الإنسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة..».

ولقد كان (إقبال) يعتقد هذا اعتقادًا جازمًا ويرى أن الفن محاولات لفهم حقائق الحياة وإبرازها للناس في وضوح وجلاء، وليس لمجرد الترفيه والتسلية والترف العقلي لإزجاء الوقت.. لهذا قال إقبال:

الــــشعر فيـــه مـــن الحيـــاة رســـالة
أبديـــــة لا تقبـــــل التبـــــديلا
إن كـــان مـــن جبريـــل فيـــه نغمـــة
أو كـــان فيـــه نفـــخ إسرافـــيلا

فالشعر عنده له غاية منوطة به ورسالة يسعى لتبليغها في صدق وإخلاص، رسالة يحملها الشعر في مختلف ألوانه سواء أكان شعرًا رقيقًا وزينًا، كأنغام (جبريل)، أو كان قويًا ثائرًا صارخًا، كأصداء البعث والنشور التي ينفخها إسرافيل في صوره ليصعق من في السماوات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى ليوقظهم من جديد.

والرسالة التي يقصدها (إقبال)، رسالة عامة شاملة لا تحتجزها حدود الهند، ولا تحتجزها آسيا ولا تنتشر أضواؤها وآلاؤها على الشرق وحده بل هي للإنسانية جميعها، وإلى شتى أنواع البشر دون تفرقة من لون أو جنس أو لغة أو معتقدات، لأنها رسالة لا تؤمن بحدود الزمان أو المكان، هي رسالة الإسلام الذي منه اشتق فلسفته، ومن أجله قال شعره، وعلى هداه رسم لنفسه، وللناس الخطة المثلى والسبيل السوي.

ألـــم يبعــــث لأمــــتكم نبـــي
يوحــــدكم عــــلى نهــــج الوئـــام
ومـــصحفكم وقبلـــتكم جميعًـــا
منـــار للأخـــوة والـــسلام
فـــما لنهـــار ألفـــتكم تـــولى
وأمـــسيتم حيـــارى في الظـــلام

لهذا لن يستطيع أحد أن ينكر تلك الرسالة الكبيرة التي تضمنها شعر (إقبال) أو ينكر مدى انتشارها الواسع، وشهرتها التي طبقت الآفاق، وما ذلك إلا لأنها رسالة عالمية كبرى استقبلها المفكرون والفلاسفة في شتى أنحاء العالم بالبحث والنقد والتعليق.

و(إقبال) يرى أن شعره قد مر بثلاث مراحل:

أولًا: دور النشأة والتكوين وفيه من سعة الخيال وابتكار المعاني وروح الحب والجمال وطلب العشق -فيه الشيء الكثير من ذلك مما كان يبشر بمستقبل باهر- لكنه كان خاليًا من دقة الفكر والتعمق، وكانت تتجلى فيه الحيرة والقلق وهذا أمر طبيعي لشاب شاعري المزاج متيقظ الحس يؤلمه ما وصل إليه حال مواطنيه من البؤس والشقاء!

وتنتهي هذه الفترة سنة 1905م أي في السنة التي وصل فيها شاعرنا إلى أوروبا، لينهل من مواردها، ويقتطف من رياض فلسفتها وفنها، وهكذا يبدأ الدور الثاني، الذي استغرق من سنة 1905م إلى 1908م ولقد كان الشاعر فيه قليل الإنتاج بعد أن استحوذت عليه الأبحاث العلمية والنظريات الحديثة، والأشواط الفكرية الطويلة، التي قطعها الأوربيون، حتى أوشك أن يودع الشعر -كما قلنا- إلى الأبد لولا أستاذه (توماس أرنولد)!

ولقد كان أثر أوربا باديًا في شعره في هذه الفترة فاتسعت أفكاره، وعلت علوًا قصرت عنه اللغة (الأوردية) التي كان يكتب بها شعره في بادئ الأمر، فاتخذ الفارسية لغة ثانية لنظمه.

وكان الدور الثالث والأخير بعد عودة الشاعر من أوربا حتى توفاه الله وفيه بدأ شعره عميقًا مكتملًا، وأضحت المعالم جلية وحلت السكينة والأمن والطمأنينة مكان الحيرة والقلق في نفش الشاعر!.

فأخذ شعره يخطو خطوات سريعة منتظمة نحو الكمال بقدم ثابتة ويقين لا يتزعزع ولا يتقلقل، وتحول من سلطان المحبة والجمال إلى سلطان الحكمة والكمال، لأنهما مصدر القوة ومصدر المحبة ومصدر الجمال.. وكتب منظومتيه (أسرار خودي) و(رموز بي خودي) تعرض فيهما لصفات الرجل المؤمن والتربية التي يجب أن يأخذ بها نفسه، والوسائل والغايات التي يجب أن يعتصم بها، وتعرض فيهما أيضًا للدولة الإسلامية -وكيف تقوم- وعلى أي أساس تنشأ، وعوامل قوتها وضعفها، وسر تقدمها وتأخرها، ورسالتها التي يجب أن تحملها إلى البشر وعن ماضيها الزاخر وسر عظمته وعن رجالاتها وواجباتها وكل ما يتعلق بها.

هذه عجالة سريعة عن المراحل التي مرَّ بها شعر (إقبال) ولا نريد أن نستطرد في ذلك لأننا نقصد زاوية خاصة في شعر

(إقبال) -كما أسلفنا- ونعني بها موكب البعث الذي يضرب بأقدامه الأرض، على وقع الأنغام القوية الفتية التي يعزفها (إقبال).

الحرية في شعر (إقبال):

(إقبال) يؤمن بالحرية ويعشقها عشقًا ملك عليه فؤاده، ويعجبه قول (عمر بن الخطاب):

«كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟..» فالحرية عند (إقبال) أساس الوجود ونعمة الحياة وسر البقاء، أو قل هي الروح يبعث أنفاس الحيوية، ودم النماء في كيان الأفراد والأمم.. لهذا كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بصحة مبدأ (الاختيار) ولا يرضيه مطلقًا قول القائلين (بالجبرية)، ويعتقد أيضًا أن (الإيمان بين الجبر والاختيار).. (حديث نبوي).

إن الإنسان بتربية (ذاته) وتقويتها والاهتمام بها حسب الفلسفة التي اعتنقها (إقبال) والتي منبعها الشريعة الغراء، يتدرج من الجبر إلى الاختيار، فإذا ما وصل إلى المرحلة الثالثة في فلسفة (إقبال) فقد أصبح كامل الحرية، مطلق الاختيار، جديرًا بالأستاذية والسيطرة وقيادة العالم، وأهلًا للقب (الفقير) الذي طوع يمينه متاع الدنيا الذي يزهد فيه.

فالحرية إذًا صفة غالية مهمة، عزيزة المنال، لا تكتب كاملة إلا لمن بلغ الغاية، وأحسن السير في طريق تنمية الذات وتربيتها، وليس معنى ذلك حرمان كل من لم يعتنق هذه الفلسفة من حريته، وإنما (إقبال) قد قرن الحرية المطلقة بالرجل الكامل التربية، القوي الذات، والجدير بخلافة الله في الأرض، أما باقي الأفراد فإن مقدار الحرية يتفاوت بحسب استعدادهم لها، وفهمهم لمدلولها، فلقد سخر (إقبال) مر السخرية من هؤلاء الذين فهموا قضية الحرية فهماً أبتر، وأخذوها مأخذًا ضعيفًا، فالمسلم الساذج يظن أنه في حرية ما دام يحظى بالشعائر العبادية كالصلاة والصوم، وما عدا ذلك من حرية التصرف في أمر بلاده وشؤون سياستها، فلا عليه:

للـــشيخ في الهنـــد أجيـــزت ســـجدة

فخــــال ذا الإســـــلام حـــرًا ســـيدًا

ومثل هذا المسلم قد فسر (القرآن) حسب هواه وضعفه، وجعله ذريعة لترك المساعي والكفاح، مع أن (القرآن) في الماضي كان الأداة التي ملك بها أجدادنا الدنيا:

مـــن القـــرآن قـــد تركـــوا المـــساعي

وبـــالقرآن قـــد ملكـــوا الثريـــا

تبـــدلت الـــضمائر في أســـار [1]

فـــما كرهـــوه صـــار لهـــم رضـــا

وفي قصيدته (رجال الله) يصف الرجل الحر وصفًا دقيقًا، فهو الرجل الذي يسدد الضربات ويحيدها، والذي تجتمع فيه عظمة الملك وتواضع الصوفي وأخلاقه، وغزارة علم الفقيه، أي أنه ذو (تاج) و(خرقة) و(قباء).. فالرجل الحر سر النور والحياة، فطرته مستقيمة تتأبى على الشرور والآثام، وتنأى بنفسها عن مواطن الضلال والمروق والكفران.

إنـــما الحـــر مـــن يجيـــد ضرابًـــا

لا الـــذي حربـــه تـــدور هـــراء

وســـجايا الأحـــرار تجمـــع تاجًـــا

ذا ســـناء، وخرقـــة وقبـــاء

مـــن خفايـــا تـــرابهم أخـــذ الـــدهر

شرارًا فـــصاغ منـــه ذكـــاء [2]

فطـــرة حـــرة تعـــاف الـــدنايا

(1) العبودية.

(2) الشمس.

مـــن طـــواف الأصـــنام عاشـــت بـــراء

ويستطرد (إقبال) في تغنية بالحرية، وتمجيده لها فإذا ما وازى بين الإنسان وغير الإنسان جعل الحرية هي الصفة البارزة، والسمة الواضحة في البشر، فالأفلاك في سموها وعلو منزلتها مقهورة مشلولة لا حرية لها:

أيـــن منـــك الأفـــلاك؟ إنـــك حـــر

وهـــي قهـــر ذهابهـــا والإيـــاب

وانتقل معي إلى تلك الروعة حينما يصور ماهية الحياة عند الأحرار وعند العبيد، فعيش العبيد خواء وضعة لا معنى فيه للحياة، أيام متخاذلة بطيئة تحمل في طياتها الملل والخور والجبن، أما الأحرار فحيلتهم تشويق وإشراق ومجالات للسبق والتقدم والإبداع، حتى كأن اللحظة الواحدة من حياة أحد الأحرار تعادل عامًا كاملًا من حياة الأذلاء الواهنين، لما في تلك اللحظة من عمل وحيوية، فحياة الحر مجموعة من الحيوات المليئة، وحياة العبيد خرافات وأوهام وتطفل وتقاعس، حتى أفكارهم كالجيفة النتنة المنفرة:

ولحظـــة الحـــر عـــام للـــذليل فكـــم

كـــم تبطـــئ الـــسير بالعبـــدان أوقـــات

ولحظـــة الحـــر مـــن خلـــد رســـالته

ولحظــة العبــد مــن مــوت فجــاءات

وفكـــرة الحـــر مـــن حـــق منـــورة

وفكـــرة العبـــد تغـــشاها الخرافـــات

كرامـــة حيـــة بـــالحر ماثلـــة

والعبـــد مـــن غـــيره تـــأتي الكرامـــات

والعبد قد تغتفر له الفلتات، ولا يلتفت إلى تراخيه ونومه وركونه للذلة، أما الحر فإن له على الأرض رسالة تحرمه النوم، وتسلبه الراحة والأمن لأن مبادئه وأهدافه تحتاج إلى الكفاح والصبر، «ليس للحر على الأرض جمام» (1) .

ويهتف إقبال برجال الفن أن يتحرروا من أسار الطبيعة وألا يقيدوا أنفسهم وفنهم. بأشكالها المجردة، ومظاهرها المعروفة، بل ينبغي أن يظهر كل منهم ذاته ومشاعره في كل ما ينتج ويخرج إلى الأنام، من معجزات فنية، لأن الروح المنطلقة المتحررة فيها فن حر، والروح المقيدة العاجزة فنها عبد ذليل:

تعـــالى ضـــميرك عـــن كـــل لـــون

فعفـــت مـــن اللـــون كـــل القيـــود

إذا أضـــــــنت الـــــــروح آلام رق

---

(1) راحة.

ففنـــك عبـــد رهـــين ســـجود

وإن عرفـــت قـــدرها كنـــت حقّـــا

عـــلى الجـــن والأنـــس رب الوجـــود

وهناك نوع من الأدب يدعى (أدب الاستعمار) يتزعمه فئة من المفكرين عاشوا في كنف الاستعمار وطال عليهم الأمد فأولوا المثل العليا، وحوروا فيها، كي يفلسفوا خورهم، ويغطوا انحرافهم وفي نظر إقبال أن هذا النوع من الفن لا يستحق أن يسمى فنًا، ما دام قد انتفت عنه صفة الخلق والتحرر والكرامة:

لـــيس يخلـــو زمـــان شـــعب ذليـــل

مـــن علـــيم وشـــاعر حكـــيم

فـــرقتهم مـــذاهب القـــول لكـــن

جمـــع الآراء مقـــصد في الـــصميم

علمـــوا الليـــث جفلـــة الظبـــي وامحـــوا

قـــصص الأســـد في الحـــديث القـــديم [1]

همهـــم غبطـــة الرقيـــق بـــرق

كـــل تـــأويلهم خـــداع علـــيم

(1) غاية هؤلاء المفكرين أن يبذروا بذور الضعف والوهن في القلوب!.

وهذا في الواقع تصوير دقيق لحقيقة الفكر في الأمم المغلوبة على أمرها بل هو صورة نفسية صادقة للأمم التي ران عليها التحكم والتسلط ردحًا كبيرًا من الزمن، حتى لكأنما هذه الشعوب قد مسخت وخلقت خلقًا جديدًا، فتبدلت نظرتها وحكمها على الأشياء تبدلًا يدعو للاستغراب.. والدهشة.

وهناك أمر مهم من الخطورة بمكان.

فالحرية حق مقدس لكل أمة ولكل فرد من أبنائها.

لكن، أهي حرية التمادي والمغالاة وعدم المبالاة التي لا تكترث بشيء ولا تعبأ بشيء فلا يقيدها حق، أو يحزنها باطل؟ فهل تفعل الدول الكبرى القوية ما يحلوا لها؟. وهل تلتهم الأمم الصغيرة كاللقمة السائغة متحررة في عملها ذاك من واجب الإنسانية وعاطفة الأخوة غير عابثة بمثل أو عهود أو مواثيق؟. إن ذلك وإن كان حرية بالنسبة للقوي فهي ولا شك قهر وإذلال للضعفاء، إنما الحرية الحقة هي تلك التي لا تتعارض مع مصلحة الآخرين وحقهم في الحياة الحرة الشريفة، فإذا ما انحسر ظل الحرية عن بلد ليبسط رواقه على بلد آخر، فإني لا أسمي ذلك حرية بل هو عين اللصوصية والجشع، مثل هذا الشعب القوي يستمد حريته من جبروته الأعمى، لكنه في الحقيقة ليس حرًا لأنه عبد هواه، وعبد نهمه وجشعه، وعبد نفسه الجامحة المتشردة التي لا تعترف بالحرية إلا لنفسها.

أقول لقد كان (إقبال) يفهم الحرية بمعناها الإسلامي الجامع ويمدلولها المطلق الذي لا يعرف أسود ولا أصفر، ولا يميز بين أحمر وأبيض، لأن الجميع بشر، وأناس من حقهم أن يستمعوا بالحرية، الحرية التي لا تتعارض مع حق الغير، ولا تصطدم بالمصالح المشروعة للآخرين فلا تكون سلبًا هنا وإيجابًا هناك. فالحرية لاحقة كالشمس المشرقة التي تطل على هام الجبل، وتنحدر على السفوح، ثم تهبط إلى الوديان والأخاديد، فتتسرب إلى الكوخ المتداعي، وتتدفق إلى القصر المنيف.

فالحية بين العالم وهم وزعم وتجارة.

والحرية في الفن.. ماذا بصددها؟

أيكتب الشاعر مثلًا كل ما يريد، ويعبر عن كل ما يخطر بباله؟

أنا لا أعرف كائنًا يعمل كل ما يحلو له، ويعبر عن كل ما يدرج في خياله إلا كائنًا واحدًا فقط، وأعنى به المجنون الذي تجرَّد من نعمة العقل، فلا لوم عليه ولا عتاب، لكن المهم ألا يترك مثل هذا المجنون ليدمر ويخرب حسب ما يهوى، فماذا يحدث لو ترك على هواه؟.. لا شيء إلا أن (مجنونًا ولج مصنع الزجاج) -على حد تعبير (إقبال)- فلن يترك آنية إلا وحطمها، ولا نظامًا إلا وعبث به.

ماذا يحدث إذا كتب الأديب إنتاجًا يتنافى مع الخلق، ويحرض على الرذائل ويقضي على الفضائل؟.. ماذا يحدث إذا أثار الغرائز وزيّن لها الطريق المعوج، وزوّق لها الأماني الفارغة الماجنة؟.. وماذا يحدث لو حمل معول هدمه وانقضَّ على الأمجاد والمثل الخالدة، ليزيلها ويبني على أنقاضها الرياء والكذب، والنصب الجوفاء التي أملاها عليه خياله السقيم وفكره العقيم، وشذوذه المزري، مستعملًا مع ذلك عجيب الحيلة والأسلوب الملتوي والتلاعب بعواطف الجماهير؟

إن (إقبالًا) يؤمن بحرية العقلاء البانين وليس بحرية الجهلاء المجانين الذين لا يؤمن جانبهم إذا ما دخلوا (مصانع الزجاج).. (إقبال) يؤمن بقضية الحرية على أن تجعل من نفسك الطيبة وذاتك المترفعة النزيهة قاضيًا عدلًا، في تلك القضية الشائكة، ولا بد للقاضي من استعداد خاص، وتربية معينة، حتى يصيب الحق إذا حكم، ويحسن تسديد الرمية إذا رمى.

وقد يستغل مستغل هذا الرأي فيحدّ من الحرية ويضع لها القيود، ويثقلها بالأغلال والدعاوي الكاذبة، ويقيم الحواجز والموانع في سبيلها ظلمًا وعدوانًا مثل هذا المستغل سنترك أمره للحرية نفسها، لأنها ند قوي صارم ولها أعوان وجنود، ليس من السهل أن ينهزموا أمام الحاقدين والأدعياء.

سنترك أمره للحرية كي توقع عليه العقاب وتثأر منه، وتجعله عبرة لغيره ممن تحدثه نفسه بالاعتداء عليها أو حتى مجرد المساس بحرمتها مساسًا طفيفًا.

تلك هي حقيقة الحرية في رأي (إقبال) المسلم.

ولا يضير الحقيقة أن يفتري عليها المفترون، ويتجنى المتجنون، ولا يضير الحقيقة أن يستغلها أحدهم شمالًا، ويستغلها الآخر يمينًا، لأنها هي نفسها تعرف الطريق وتسير به بلا لف أو دوران، وتندفع فيه غير عابئة بذوي الكيد والمؤامرات، لأن الحقيقة قوية خالدة لا تموت.

فالحرية آداب يجب أن تراعى.

ولها حمى يجب أن يظل مصونًا.

ولها أمناء وحراس، من العيب والجور أن يعتدي عليهم أو يحقّروا.

ولها ظل ظليل، وروضة موثقة يجب ألا تدنس بالجيفة والأقذار.

ولها منطلق سلس مستقيم يجب ألا يوصم بالعوج والالتواء.

ولها رسالة فوق مستوى التهم والشبهات يجب أن تحترم وتحمل إلى الناس ناصعة شفافة منزهة عن الأهواء والأغراض.

وصدق (إقبال) إذ يقول:

بحريـــة الأفكـــار هلـــك جماعـــة
إذا لم يكـــن فيهـــا تـــدبر عـــالم
فحريـــة الأفكـــار في رأس جاهـــل
طريـــق لـــرد النـــاس مثـــل البهـــائم

بين التقليد والتجديد:

حياة الفرد -كما قلنا في فلسفة (إقبال)- تطور دائم، ورقي مستمر، وهي في حاجة دائمًا إلى الإنشاء والتجديد، وبالتالي في حاجة إلى المواءمة والتوافق بين ما يجدّ وما يبلى، فالعلاقة بين الجديد والقديم علاقة أبدية ذات فائدة.

أما الاستمساك بالقديم وتأليهه وتقديسه، والإصرار على أنه هو الغاية التي ما بعدها غاية، والعظمة التي دونها كل عظمة رغم ما قد يبدو من عيوب، ورغم ما يحتاجه من إصلاح وإضافة، كل هذا يعتبره إقبال جمودًا ورجعية، وتعطيلًا للمواهب الإنسانية وإعاقة لموكب الحياة المتقدمة المتطورة، وتصديًا لسنن الكون وناموس الوجود، وطبيعة الإسلام الذي يدين به (إقبال) تأبى هذه وتنكره، لأنه دين الفطرة السليمة ودين العموم والشمول، ودين السعة والاستطراد في مدارج

الخير، ودين التوثب والرقي متى انعقدت النية الطيبة، وبان وجه المنفعة، ومتى كان التوافق جليًا بين ما نؤمن به وبين ما استجد.

لهذا صاح (إقبال) في جموع المفكرين الجامدين كي يتحرروا من إسار القديم ويحطموا وثاق التقليد الأعمى، ويقدموا ما عندهم من فن جليل وإنتاج سليم بطريقة مرضية محببة إلى النفوس وفي ثوب أنيق جميل يستثير الشوق، ويجبر على الاحترام والتقدير، ويلائم ظروف العصر، ونهضة الحياة وخطاها المتابعة نحو المجد.

ومن ناحية أخرى لا يترك (إقبال) الحبل على الغارب لكل ثائر على القديم منكر له، بل يرى المفيد اللائق، ويلبسه الزي المناسب ثم يبرزه متألقًا جذابًا، أو بمعنى أصح يبعثه بعثًا جديدًا، فنخاله مبتكرًا نابعًا لأول مرة، لا أثر للبلى عليه، لهذا ينكر (إقبال) أسلوب أولئك الذين اذا دعوا للتجديد حطموا كل قديم ووصفوه بالفساد وعدم الصلاحية، ودعوا لدفنه في قاعات المتاحف، وتركه في ذمة التاريخ.

إن (إقبالًا) ثائر لكنه عاقل في ثورته..

ومتحرر لكنه لبق في تحرره.

ومجدد لكنه لا يجحد فضل قديمه ولا يتنكر له، بل يفحصه ويمحصه ويأخذ منه ما يريد وما تريد سنن الحياة.

و(إقبال) فيلسوف، والفيلسوف متصف باليقظة والحرص، وبعد النظر، إنه يقول لهؤلاء المتسابقين في جنون إلى منهل كل جديد، رويدكم تمهلوا، وتبينوا، ليس كل جديد جديرًا بالأخذ معصومًا من العيوب، فلكم أيها الناس بصائر وأبصار فضعوا كل ما يأتيكم تحت (مجهر) الفحص والتأكد، فإذا آمنتم بجدواه، وتبين لكم سلامته وميزاته، وعدم منافاته لخلقكم ومعتقداتكم، فاقبلوا عليه وأنتم واثقون مطمئنون، كي تسعدوا وتسعد أجيالكم، ليس كل قديم مقضيًا عليه بالفشل والنبذ، كما أن كل جديد ليس أهلًا للإيمان به والجري وراءه».

والتقليد في نظره مسخ لشخصية الإنسان، وطغيان على ذاته وإهدار لفرديته، فالمقلد، كما يقولون، يفنى ويذوب في الشخصية التي يقلدها، ويتبع سبيلها، ثم أنه لن يصل إلى الدرجة التي وصلت إليها هذه الشخصية مهما كان انتقائه التقليد.

جـــدة الـــدنيا بتجديـــد الفكـــر

ليـــست الـــدنيا بـــصخر أو مـــدر

ثم يتجه (إقبال) إلى بعض مصلحي الشرق ذوي الأفكار الخادعة التي تشبه فن (السامري) بين قوم (موسى)، ويقول لهم أنكم لم تستمسكوا بالسنن القديمة القويمة، ولم تكلفوا أنفسكم مشقة الأخذ بالسنن الحديثة التي ثبت نفعها وجديتها.

يئســـت فـــلا أرجـــي في أنـــاس

لهـــم فـــن كفـــن الـــسامري

ســـقاة في ربـــوع الـــشرق طـــافوا

عـــلى النـــدماء بالكـــأس الخـــلي

ســـحاب مـــا هـــوى برقًـــا قـــديمًا

ولـــيس لديـــه مـــن بـــرق فتـــي

إن الشعوب التي لا تجد جديدًا تركن إليه وتفيء إلى ظله، ولا تجد قديمًا تتذرع به وتمشي على منهاجه الصالح، لا شك أن مثل هذه الشعوب تقع في ظلم الحيرة القاتلة وتتردى في وهاد الشك والقلق، اللذين يعوقان تقدمها وسيرها في مواكب النشوء والارتقاء.

و(إقبال) يقول إن عناصر النشوء والتطور كامنة في خلقنا وطباعنا فما علينا إلا أن نعرفها، فنثيرها ثم نوجهها التوجيه المفروض لها، وليست هذه طبيعة الإنسان وحده، فالأغصان في نمو وسمو دائم نحو الفضاء، والحبة المدفونة في ظلمة التربة فيها مثل تلك الطاقة التقدمية النزّعة إلى الصعود.

عـــلى كـــل غـــصن تبـــين أن النبـــا

ت مـــشوق لرحـــب الفـــضاء

فــــما قـــرّ في ظلمـــة الـــترب حـــب
جنــــون النـــشوء بـــــه والـــنماء
فـــلا تبـــغ في فطـــرة تـــرك الـــسعي
فــــما ذاك معنـــى الرضـــا بالقـــضاء

لأهـــــل الـــنماء فـــضاء فـــسيح
ومـــا ضـــاق ملـــك الإله، فـــسيحوا

ولا شك أن الخضوع التام التقليد بداية الانهيار، وعلامة الموت:

كيـــــف تجـــــلى حقـــائق لعيـــون
عميـــــت بالخـــــضوع والتقليـــــد
كيـــف يحيـــي الفـــرنج عربًـــا وفرسًـــا
بفنـــــون تـــــسير نحـــــو اللحـــــود

ويعتقد (إقبال) أن الشرق والغرب كلًا منهما يدور في دائرة ضيقة مغلقة من صنعه، وما زال في شراك القديم.. ولعل متسائلًا يقول:

هل رجال السياسة الغربيون مثلًا ما زالوا في أسر القديم وهم الذين طبقت شهرتهم الآفاق لبراعتهم في الدهاء، وقوة

خططهم في المناورات والمراوغات والسيطرة، وكثرة تأليفهم في العلوم السياسة والاقتصادية والقانونية؟ والحقيقة أن (إقبالًا) لا يعني كثيرًا بمجرد المظاهر والصور، وإنما الذي يهمه روح تلك السياسة ونتائجها، إنه يعتقد أن السياسة لم تتجدد ولم تتغير، اللّهم إلا أنهم قننوها وبندوها في قوانين وبنود، ورسموا لها القواعد، وجعلوها علمًا يدرس، فما روح تلك السياسة إذن؟ إن روحها يظهر واضحًا جليًا في سياسة (تشرشل)، وغرور (هتلر)، وتهور (موسوليني)، وأحلام (نابليون)، وكتابات (مكيافيللي)، وإرهاب (ستالين)، ومن قبل أطماع الرومان وقياصرتهم!

ويوجز إقبال رأيه في الأدب الحديث بقوله إنه يجب أن يكون مزيجًا من نسمات العشق وسكبات العقل المؤمن، وينفر من التقليد:

رأيــت العــشق يقفــو اليــوم نهجًــا
مــن العقــل الإلهــي القــويم
ولــيس بريــق مــاء الوجــه ذلًا
عــلى أعتــاب محبــوب غــريم
محــا التقليــد في روح قــديم
وأحيــا الــروح في جــسد قــديم

ويقول محذرًا من التقليد في مكان آخر:

أمـــن (ذات) غـــيرك تعمـــر قلبًـــا

معـــاذ الإله تـــرى أيـــن (ذاتـــك)؟

كـــمال المحاكـــاة أنـــك تفنـــى

فيكفيـــك هـــم الحيـــاة مماتـــك

وحينما يتكلم (إقبال) عن الرجل العظيم يقول إنه وإن كان قد نشأ في زمان سيطر فيه التقليد على كل شيء، إلا أنه نجا بنفسه من هذه الوصمة نظرًا لما في طبعه من حب للخلق والتجديد:

نـــشأته ظلمـــة التقليـــد بالنـــاس تحيـــق

غـير أن الطبـع بالإبـداع والخلـق خليـق

مثل شمس الصبح فكر فيه نور وبريق

لفظـه حـر يـسير لكـن المعنـى دقيـق

إن البعد عن التقليد الأعمى طريق موفق، يثير في الشعوب معنى العزة والإباء والاعتداد بالنفس، والاعتماد عليها، فقد استطاع إقبال أن يذكر أمته بأنها أهل للخلق والابتكار، لذلك كان لا يفتأ يذكر الشعب بآبائه الأمجاد الأفاضل، الذين حملوا مشعل الهداية والتحرر والترقي إلى العالمين في الشرق والغرب:

بلغـــت نهايـــة كـــل أرض خيلنـــا

وكـــأن أبحرهـــا رمـــال البيـــد

في محفـــل الأكــــوان كـــان هلالنـــا
بالنـــصر أوضـــح مـــن هـــلال العيـــد
في كـــــل موقعـــــه رفعنــــا رايـــــة
للمجـــــد تعلـــــن آيـــــة التوحيـــــد
أمـــــم البرايــــا لم تكـــن مـــن قبلنــــا
إلا عبيــــــدًا في أســــار عبيــــــد
بلغـــــت بنـــــا الأجيـــال حرياتهـــــا
مـــن بعـــد أصـــفاد وذلـــك وقيـــود

الطبيعة في شعر (إقبال):

إن نظرة الحكيم الحق إلى الأشياء نظرة عميقة فاحصة ولذلك فهي تتعدى المظاهر والأشكال إلى ما وراءها، ولا يكفيها السرد السطحي والوصف المجرد، لأن هذا شيء يراه كل إنسان ومن هنا كان عمل الفنان الحق أبعد مرمى وأدق غاية من سائر المشاهدين لمناظر الطبيعة، وصورها المتعددة.

فمثلًا أنا وأنت نرى أمواج البحر الثائرة، فنقول إنها هائجة مضطربة، أما (إقبال) فلا يكتفي بذلك الوصف بل يفلسفها ويقول: إن ثورة الأمواج صدى لما يعتمل في نفسي من حركة وفوران وحرقة وتوقان إلى السير في طريق الحرية والقوة والكمال، لأن (إقبالًا) يؤمن بأن على الفنان أن يسبغ ذاته على

الطبيعة، ويغرقها في روحه، فيجعلها لا تبدي لنا إلا وجه الحقيقة، التي يؤمن بها، ولا تظهر لنا إلا قوة المعاني التي يعتنقها.

كان (إقبال) يقدم لك بعض الصور التي يخيل إليك أنك كنت تكنها في نفسك، لكنك لم تكن تدري كيف تبرزها وتخرجها، ثم جاء (إقبال) وقدمها لك فريدة مؤثرة موفقة، و(إقبال) حين يقدم قضاياه الفلسفية وأفكاره القوية لا يقذف بها إليك بلا حواش أو مقدمات، لكنه يزفها إليك زفافًا شائقًا، شأن الرجل الخبير المتمكن من فنه، كما أنه ينتزع الدليل القاطع مما يقع تحت بصرك من الطبيعة ومشاهدها المختلفة.

وكان (إقبال) ينكر على أولئك المتصوفة الذين يهيمون فيما وراء الطبيعة ويذكرهم أن دنيانا أجدر بالنظر والالتفات لما فيها من حوادث وأحداث، وإلّا فمعنى انصرافنا عن دنيانا هو ضياعنا، كالأمس الدابر.

إن حب الدنيا وكراهية الموت كان من أهم الأمراض التي انتابت الشرقيين، و(إقبال)، حين معالجته لهذا الداء، يذكر المسلمين بأن الدنيا مصيرها إلى زوال، وأنه لا بد من الموت الذي بعده الخلود الأبدي، فإذا كان الموت قدرًا محتومًا، ففيمَ الخوف، وعلامَ الجبن؟

تحـــت نـــور الأفـــلاك عـــيش جميـــل

وأرى النـــــور ينطفــــئ ويحـــــول

وعـــلى كاهـــل المـــساء تــرى الــشمـ

ـــس نعـــشًا بكـــى عليـــه الأصـــيل

في ســـــني البـــدر للكواكــــب أكفـــا

ن، تـــواري بهـــا الــــشعاع النحيـــل

لـــــيس زاد المـــسافرين ســــوى الخـــ

وف مـــن المـــوت والحيـــاة رحيـــل

ثم ما هي الحياة؟

إنها صنم يعبده هؤلاء الخائفون المستسلمون..

أو هي غانية لعوب ماكرة قد أسرتهم بنظراتها المنكسرة الغاوية، وكان من الواجب أن يأسروها، أو كما يقول (إقبال): إنها كطائر رخيم الصوت، جميل الأداء، ملأ الروض بهجة ومتعة وأثار النشوة في جيد الأزهار فرقصت وماست، فما كان أعذب اللحن وأروعه، لكنه كان كالحلم الذي يداعب أجفان النائم حينما يطوف به الكرى، ثم ينجاب الحلم ولا يتبقى شيء إلا مرارة الذكرى والحسرة على الضائع.. ثم يقول:

لا يعلـــم الإنـــسان كيـــف أتـــى إلى

دنيـــا المتاعــــب أو متـــى يرحـــل

مــــا نحـــن في الأكـــوان غـــير حديقـــة

أزهارهـــا عـــما قيـــل تـــذبل

يـــا أيهـــا الحـــرص ابـــك في الـــدنيا

دنيـــاك لـــيس بهـــا لحـــي منـــزل

ويقول في مكان آخر، ليؤكد أن الموت ليس معناه الفناء ولكنه انتقال إلى عالم آخر فيه الخلود والبقاء الأزلي:

كـــل كـــون أبلتـــه أيـــدي الليـــالي

أحرفـــوه ليـــصنعوه جديـــدًا

يهـــدم البيـــت بعـــد حـــين ليبنـــي

منـــزلًا عاليًـــا وقـــصرًا مـــشيدًا

ويقول:

تغـــرب الـــنفس ثـــم يـــشرق صـــبح

فيـــه للـــنفس بـــالخلود ارتقـــاء

فهو حين يذكر الموت لا يقصد بذلك أن يثني القلوب عن الكفاح والصراع، ويملأ النفس بالتشاؤم وعدم الاكتراث، ويحطم لديها قصور الأمل، لكنه أراد أن يقول لهم: أقدموا ولا تهابوا الموت فمن الضعف والضلال أن تهابوا الموت في سبيل خلودكم وعزتكم وحريتكم، وهو لا بد ملاقيكم وإن طال الأجل.

والآن أتدري لماذا تشدو الطيور في رقة وجمال وعاطفة جيّاشة؟

إن هناك سببًا لا يخطر على بالك، والسحب وهي تندفع وتقطع المسافات الواسعة ثم يفيض ماؤها ليروي الظمأ، ويرطب اليباب والقفر، ما السبب في ذلك؟.. إنه سبب لا يبرق في مخيلتك أبدًا!.. والموج في علوه واصطخابه وطغيانه وعلوه، ما الذي يثير فيه تلك الطاقة، ويحرك بين جنبية تلك النشوة العارمة؟.

يجيب (إقبال) على حيرتك وتساؤلك بأن سر هذا كله هو الهجران.. أجل الهجران ذلك الذي يثير الرغبة والعشق، ويؤجج الحنين ويدفع على العمل، ويزوق المنى، والمعروف أنه في القرب راحة، وفي الهجر مشقة وألم، لكن (إقبالًا) يحول تلك المشقة وهذا الألم إلى دافع قوي من دوافع القوة والحيوية والكفاح:

الوصـــــل في الحـــــب غـــــال
وقيمـــــة الهجـــــر أغـــــلى
الوصـــــل حلـــــو ولكـــــن
عواقـــــب الهجـــــر أحـــــلى

****

في القـــرب مـــوت الأمـــاني
والعــــيش فيـــــه فنـــاء
والبعـــــد فيـــــه حيــــاة
يـــذكى ضـــياها الرجـــاء

****

إن اتقـــــاد الأمـــــاني
وحـــسن شـــدو الطيـــور
وضـــجة الخلــــق ســعيًا
في العـــــالم المعمــــور

****

والـــسحب حـــين تراهـــا
تـــسقي الربـــى واليبـــاب
والمـــوج في البحـــر يعلـــو
حتـــى يفـــوق الهـــضاب

****

وكـــل مـــا في البرايـــا
مـــن روعـــة وجـــلال

لـــــــولا يـــــــد المجـــــــر فيـــــــه

لم يزدهــــــــــــــر بـــــــــــــــالجمال

ثم انظر لتلك الصورة الحيَّة للكائنات، عندما تفزع من نومها، على ضجيج الغارة التي تشنها جحافل النور على فلول الظلام الهاربة المذعورة، ثم يعمُّ الصباح أرجاء الوجود، فتتثاءب الحياة وتتمطى، وتنفض عن جسدها رداء النوم والقعود وتستقبل موكب الشمس بما هي أهل له من استعداد، وبما هي جديرة به من لقاء:

حيـــــنما يـــــسفر الـــــصباح نـــــديًا

ناصـــــــعًا في مواكـــــــــب الإشراق

يغـــــــسل النـــــور في المـــــشارق أد

ران الـــــدياجي عـــــن حلـــــة الآفـــــاق

****

ويطـــــير الكـــــرى وينتبـــــه العـــــشـــــ

ـــــب وتـــــصحو عـــــزائم الكائنـــــات

ويهـــــب الأحيـــــاء في الـــــبر والبحـــــ

ـــــر وليـــــستقبلوا عـــــروس الحيـــــاة

***

وإذا كـــان للخلائـــق نـــاموس

يرينـــا الـــصباح بعـــد المـــساء.

فكـــذا تـــذهب الحيـــاة ولكـــن

بعـــد ليـــل الحـــمام صـــبح البقـــاء

ولقد كانت البيئة الجغرافية التي عاش فيها (إقبال) معينًا لا ينضب لشعره وزادًا لا ينفد لأفكاره المتواصلة، فقد تنقل بين الجبال والوديان والشعاب، ورأى الأنهار تنحدر فوق السفوح تسطر حكمة الأبد، وتتبعثر المياه لتتجمع مرة ثانية، أو تغوص في الرمال، لتلتقي بعد ذلك في مجراها من جديد حاملة الرسالة السرمدية، وهي أن الحياة فراق ولقاء، وصراع وجلاد وجلال وجمال، وملتقى الأشتات!

فلنبدأ هذه الرحلة الخالدة مع إقبال، لأنها وإن كانت رحلة النهر من منبعه إلى مصبه إلا أنها رحلة الإنسان من البداية حتى النهاية، ولأنها قصة محسوسة ملموسة لا نبرح نرمقها لاهين ناسين غير مدققين فيها:

مـــن رؤوس الجبـــال ينحـــدر النهـــر

طـــروب الأمـــواج عـــذب الأغـــاني

تنقـــل الطـــير عنـــه بـــين الـــروابي

مـــا تبـــث الغـــصون مـــن ألحـــان

****

كخـــدور الحـــور الحـــسان تـــراه

في صـــفاء البلـــور حلـــو الخريـــر

ثـــم تمـــضي تلـــك الميـــاه ضـــياعًا

في تـــلال منثـــورة وصـــخور

****

قطـــرات مـــن النمـــير طوتهـــا

في ثنايـــا الرمـــال أيـــدي الفـــراق

ثـــم تجـــري بهـــا الينـــابيع في الأرض

فتحظـــى بعـــد النـــوى بـــالتلاق

****

فـــإذا النهـــر بعـــد ذلـــك في مجـــرا

ه يحيـــي الزهـــور والأعـــشابا

فـــضة تنبـــت الزمـــرد في الأ

رض وتـــسقي النخيـــل والأعنابـــا

****

وحيـــاة الإنـــسان نهـــر ســـما

وي توالـــت بـــسيره الأقـــدار

كلـــما غـــاض مـــاؤه عـــاد فيـــا

ضًـــا، فـــما ينقـــضي لـــه تيـــار

وهكذا تتآزر آحاد الطبيعة، ويتعاون أفرادها مع محافظة كل كائن على صفته -أو ذاته الخاصة- فالطيور تأخذ شدوها، وتتعلم لحنها من الخفقات والأنغام التي تصدر عن النهر، والماء يسري كالشرايين أو كالفضة الذائبة بين طبقات الأرض، باحثًا عن الجذور والبذور، كيما يدفع فيها سر الحياة، ويذيع فيها روح البقاء والنماء!

كان (إقبال) مثل الصيدلي الذي يحضر الدواء الشافي ويجده مر المذاق غير مستساغ الطعم لا يقبله المريض، لكن هذا الصيدلي البارع يفكر في الأمر، ويقدح زناد فكره ويجري التجارب العديدة حتى يتمكن من إضافة مادة معينة، جميلة الطعم والرائحة، إلى الدواء المر، فتحجب مرارته، وتجعله مستساغًا مقبولًا، دون أن تنقص من فائدته للمريض شيئًا!

كان هذا شأن (إقبال) في أدائه لأفكاره الناضجة، وعرضه لفلسفته الخالدة، فلسفة البعث والتحرر والكمال!

السخرية في شعر (إقبال):

إن (إقبال) المسلم في عقيدته وعمله وأخلاقه إنسان عف اللسان، شريف المقصد والنوايا، ويعلم تمامًا أن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحُجُرات:11].

فإذا كان الأمر كذلك فكيف يسخر (إقبال) إذن؟

لم تكن سخرية (إقبال) إلا لونًا من التأديب والتهذيب، أو إشارة إلى وضع شائن يجب أن يباد، واعتقاد أحمق، يجب أن يهال عليه التراب، وربما كانت سخريته نوعًا من المزاح، ذلك المزاح الذي يصف المؤرخ به النبي ﷺ حينما قال عنه: «كان يمزح ولا يقول إلا حقًا».

وليست السخرية المحمودة -إن صح أن تسمى كذلك- شيئًا مبتذلًا هينًا يستطيع كل لسن أن يأتيه، لكنها فن ودراية وعبقرية، فترى في اللمحة العابرة معاني كثيرة، وفي الإشارة السريعة مغزى عميق الغور بعيد المقصد، وفي البيت الواحد أو البيتين إيجازًا متقنًا بليغًا يحمل في تركيبه الحكمة البعيدة النظر.

بهذه الطريقة البارعة التي لا تتنافى مع خلق أو دين هاجم (إقبال) أدعياء النبوة في العهد الحديث، وانهال على أنبياء السياسة وأساطينها تقريعًا لاذعًا، فلم يفلت منه متجن أو جاحد. ولم ينج من نقده القوي شارد أو وارد ممن استكانوا للاستعمار أو خدعوا بالحضارة الغربية على علاتها.. إن الذين نصبّوا أنفسهم حماة عن الدين، وحفاظًا لتراثه، وهم لا يعلمون منه غير حفظ المتون وإطالة اللحى، وحبك العمائم.

ثم يتمادون ويفتون بإبطال الجهاد.. و.. و..الخ.

وقد يقول قائل:

كيف تسنى لهذا الرجل الجادّ (إقبال) أن يقذف بنكاته اللاذعة ونقد المر، وعباراته المضحكة المبكية في آن واحد؟.

ولكن لا عجب في ذلك أبدًا.. فإن العباقرة نفوسهم بعيدة الآفاق وقلوبهم رحيبة الميادين، يصولون في كل مجال، ويجوبون في شتى المناحي، لأنهم كبار في أفهامهم ونظراتهم كبار في مقدرتهم وإرادتهم وابتكاراتهم، يسعون الدنيا بأشكالها وألوانها.

ومن أمثلة سخريته الخالدة أن جماعة مأجورة قامت في (الهند) وزعمت أنها باسم الإسلام تفتي وتتكلم وانتظر الناس هناك ماذا تقول هذه الجماعة، وما أن تكلموا، حتى كان أمرهم

عجبًا، لقد أصدروا فتواهم قائلين بأن هذا العصر عصر المدنية والحضارة، عصر التقدم الفكري، ولهذا فإن الدعوة في هذه الأيام لا تكون إلا بالقلم والمنطق والتفاهم، وقرروا أن الجهاد باطل في هذا العصر.. ومن خرج عن ذلك فهو خارج عن الإسلام.. وسرعان ما شرع (إقبال) والألم يعتصر نفسه ويحرق فؤاده، إذ كيف يطالبوننا بالكف عن الجهاد رغم أننا لا نملك سيفًا، ولا نحشد قوة.. بل نحن مستعمرون مستذلون؟ أما كان الأجدر بهم أن يسوقوا هذه الفتوى إلى من حكموا الشرق رغمًا وقهرًا، واستعبدوا بنيه، وحكموا القوة لا العدالة، وركنوا إلى السيف لا إلى المنطق السليم؟ إنهم سفكوا الدماء، وأغرقوا العالم في عنفهم وظلمهم وتسلطهم.

قال (إقبال):

الشيخ أفتى أنه عصر القلم
ما السيف فيه حاكم بين الأمم
أما درى الشيخ بأن وعظه
في مسجد قد صار من لغو الكلم
فما ترى السلاح كف مسلم
بل قلبه من لذة الموت حرم

فعلمـــــن تـــرك الجهـــاد طاغيّـــا

مـــن كفـــه يـــسيل في العـــالم دم..

أمـــا تـــرى الغـــرب بـــدا مـــدججًا

لـــيحفظ الباطـــل في عـــز عمـــم

يـــا مفتيّـــا عـــلى الكنـــيس مـــشفقًا

قـــد حـــار في أحكامـــه أولـــو الفهـــم

الحـــرب في المـــشرق شر داهـــم

والحـــرب في المغـــرب شر لا جـــرم

إن يبتـــغ الحـــق فكيـــف حاســـب

المـــسلم لا الفـــرنج ذلـــك الحكـــم؟

ولقد كثرت النحل وتعددت المذاهب، وكثر أيضًا أدعياء النبوة في البنجاب فاتخذ (إقبال) من المسلم البنجابي مثلًا للتقلب والافتراء والزعم.. وإشارة للأفق الضيق والفهم الساذج، ولِمَ لا؟.. ألم يبتدعوا النبوات ويسرفوا في الفتوى، ويفرضوا على الأمة المحطمة المستعبدة أن تعيش بغير جهاد؟.

مجدد في كل حين مذهبًا

يحل في مرحلة ليركبا

في حلبة التحقيق نكس وإذا

خامره داع غوي غلبًا

حبالة التأويل إن تنصب له

هوى من العش إليها معجبًا

وفي مكان آخر يكشف (إقبال) الستر عن تضليل الغرب وخداعه، ويفضح مدنيته التي ترتكز على النفاق وتحيا على الرياء والكذب.. وذلك عندما أنشيء مسجد (باريس)، فتراه يتخذ من هذا العمل فرصة لإزالة القناع عن نوايا الاستعمار وخفاياه، وكأنه يقول: أيها المعجبون المقدسون لفرنسا نظرًا لإقامتها هذا المسجد، رويدكم.. فإن من بنى هذا الأثر الديني قد عاث فسادًا في الشام، وخرَّب (دمشق) وخنق حرياتها وداس عواطفها لأنها تريد أن تتحرر:

يا نظري لا يخدعنك فنه

للزور هذا الحرم المغرب

إن الذي شيّد هذا موثنًا

(دمشق) من عدوانه تخرب

ويواصل سخريته من الغرب وثوراته المجنونة وأنظمته المضطربة الحائرة وأفكاره المتناقضة.. إن (إقبالًا) يقول للروس: لقد بجلتم الصليب وقدستموه من قبل، وأرقتم على جوانبه الدماء لتحموا حوضه، وتحرسوا سدته، ثم ها أنتم أولاء اليوم

تحطمون الصليب وتشنون عليه الحرب العوان، وتحقرونه وتزدرونه..ترى ماذا دهاكم؟. لعل الوحي الجديد قد أمركم بهذه الزندقة.

إن سـير القـضاء جـد عجيـب
أي سر حـوى ضـمير الزمـان
لـيس يـألو الـصليب كـسرًا قبيـل
كـان يرجـو النجـاة بالـصلبان
أمر الوحي ملحدي الروس هدوا
مـا بنـاه القـسوس مـن أوثـان

وفي مقطوعة (موسوليني) يتحدث هذا الزعيم الإيطالي ويوجه خطابه إلى الثائرين في وجهه الواقفين في طريق مطامعه من حكومات الدول الغربية ويقول لهم: ماذا تريدون مني؟.. إن كنت أنا (موسوليني) أسفك وأدمر، وأوسع رقعة إمبراطوريتي، فأنتم أيها الغاضبون الحاقدون قد سبقتموني في هذا المضمار، أتريدون منا نحن أبناء (قيصر) وأحفاد العظام أن نسكر في اللهو والطرب، أما أنتم فتملكون وتحكمون.. لا تلوموني يا ساسة الغرب فإن مدينتنا هكذا، وما أظن مدنيتكم إلا كذلك.

كلانـا بـآلات التمـدن آخـذ

أتنقم أفعال السيوف حراب؟
وقد نقموا مني غرام تملك
أما ثار منهم بالضعاف ضراب؟
أينفخ في الأعواد أبناء قيصر
ويجبى إليكم عامر ويباب؟
نهبتم خيام البدو والزرع والقرى
وكم كان منكم للعروش نهاب
قصدنا من التمدين قتلًا وغارة
أأمسكم فخر ويومي عاب؟

وفي معرض المفارقة بين الشرق والغرب وما بينهما من صلات قديمة وحديثة، يلمح إقبال إلى قضية سوريا الجريحة آنذاك فيقول: الشام بالأمس قد أهدت (المسيح ابن مريم) إلى الغرب فما بال الغرب اليوم يبعث إليهم بهدايا من النساء والخلاعة والموبقات؟.

أهدت الشام إلى الغرب نبيًّا
هو عف ومواس وصبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا
من قمار ونساء وخمور

وتراه في مكان آخر يدحض مزاعم اليهود ويرد دعواهم على أعقابهم حينما يدَّعون ملكية (فلسطين)، لأنها كانت لهم في قديم الزمان فيقول ساخرًا: أما كان للعرب أن يطالبوا بأسبانيا تلك التي ملكوا زمامها في غابر الأيام وملأوا ربوعها علمًا ونورًا؟ ثم يعود فيقول إن المستعمر لا يفتأ يردد أنه قد خلص الشام من أيدي الأتراك المستبدين وينسى هذا الوهم الغاشم أن الشام قد سقطت في يد استعمار قاس لا يرحم، وطغيان أليم لا يزول لا يقاس بطغيان الأتراك، ولقد سأله أحد زملائه في جامعة (كمبرديج) قائلًا:

- لماذا يبعث الأنبياء ومؤسسو الديانات في آسيا دون أوروبا؟.

- فأجابه إقبال:

- لأن العالم مقسم بين الله والشيطان، ولما كانت آسيا من نصيب الله كانت أوروبا من نصيب الشيطان.

فرد أحدهم قائلًا:

- قد عرفنا رسل الله فأين رسل الشيطان؟.

فأجاب (إقبال) على الفور:

- إنهم زعماء سياسة الخداع والمكر في أوروبا!.

على هذا النسق العبقري الغريب كان (إقبال) يسوق بعض نظراته العميقة التي تتناول مشاكل الحياة والمجتمع وشئون الدين والسياسة، وهو في كتاباته لا ينسى الغرض الأسمى، الذي يؤمن به ولا يتجاهل المثل الأعلى الذي ينشده!.

ولقد كان يتناول أعقد الأمور وأشق القضايا بهذا الأسلوب المعجز حتى في الأوقات التي يجتمع فيها حشد كبير من الناس فيلقي بما يراه في شجاعة لا تعرف التراجع وأدب لا يعرف الزلل ولباقة تستنكر كل خروج على التقاليد والأوضاع السليمة،ومن ذلك أنه بينما اشتد الجدال بشأن مسألة الحجاب للمرأة ودارت المناقشات الحامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين فإذا بإقبال يخرج عليهم بحكمته الساخرة الصادقة في آن واحد ويقول لهم:

«إنني أدافع عن هذا الحجاب لأنه يزيد الرغبة في الملاح ولا يحرم منها القباح». ولقد قال المرحوم (علي الجارم) في إحدى قصائده ما يقرب من هذا المعنى:

«والنفس أغرى بالجمال محجبًا».

ولقد ذكرنا الحديث عن الحجاب بالمرأة وقضيتها فماذا كان رأي (إقبال) إزاء هذه المشكلة المستعصية؟.

***

«إقبال» والمرأة



إنــــــما المـــــرأة لـــــــون
في رســــــوم الكائنــــــــات
لحنهــــــا ينفـــث نــــار الـــــو
جـــــد في صــــدر الحيـــــاة
ذلـــــك الطـــــين تعـــــالى
فــــــوق أوج النـــــــيرات
مـــــا (لأفلاطـــــون) تـــــروي
مـــــن قـــــضايا معـــــضلات
وهـــــو منهـــــا كـــــشرار
مـــــن ذكـــــى الجمـــــرات

أجل إن المرأة مخلوق بشري له احترامه وتقديسه وليست حيوانًا حقيرًا كما زعم البراهمة -أجداد (إقبال)- من قبل، هي كاللون الوسيم الجميل في اللوحة الفنية الرائعة وهي مصدر الجمال والحب والرحمة وآية العطف والحنان والنبل، وهي أنفاس

الربيع الحلوة وأنشودة الحسن العذبة، وهي مصدر الوجود، وأم الفلاسفة والحكماء، ولو أنها لم تتفلسف، هي المدرسة الأولى للعقل الوليد، والمعهد الأسنى للطفولة التي تحبو في فجر نشأتها هي الديدبان اليقظ الحارس لأخطر ثغرة من ثغرات الحياة، وأعني بذلك النشء الجديد، لذلك لا تقل أهمية عن الجندي الذي يحمي الذمار لأنه ابنها ولا تقل خطورة عن الحاكم الجبار المتربع على كرسي الإمارة لأنها هدهدته في مهده صغيرًا، وروعته غلامًا وأوحت إليه بالحب والسعادة شابًا.. ولا ينقص من قدرها أنها وزيرة في بيتها، وغيرها وزير في دواوين الحكومة، ولا يحط من قيمتها أنها تضع التكتيكات وترسم المناهج لمعركة الحياة لأبنائها في محيط منزلها، بينما الرجل يخوض الميادين ويبذل الدماء ويقذف بالنار والدمار في ميادين أوسع.. إنها امرأة بطبيعتها وخلقها واستعدادها الفطري!.

ولن تكون رجلًا أبدًا إلا إذا مسخت نواميس الكون، وانتكست سنة الطبيعة، وبرزت عضلاتها.. واكفهرت ملامحها واخشوشن جلدها وتصلبت نظراتها، وغاض ينبوع الغذاء والحنان في صدرها، فأي حرية يطالبون بها النساء؟.

إذا كانت حريتها في أن تفك عنها أغلالها المكونة من عقود اللؤلؤ فتعسًا لها من حرية تجردها من حريتها وتشوه من جمالها. وإذا كانت حريتها في أن تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء فهذا شيء

لا يباري فيه أحد ما دامت حافظة لحدودها، مبقية على كرامتها وعفتها، فاهمة لرسالتها الحيوية وواجبها نحو أشبال الغد..

والسفور.. ماذا يقول عنه (إقبال) هو الآخر؟.

إذا كان السفور رونقًا وجمالًا يشبع العيون النهمة، ويرضي النفوس الجائعة، فهو ولا شك مطية للزلل، ووسيلة للانحراف واندفاع في سبيل الغواية والضلال، إنه على حد تعبير (إقبال) «السفور نور في العين لكنه ظلمة في الصدور.. ويقول:

إن تجـــز متعـــة العيـــون مـــداها

كـــان فيهـــا الـــشتات في التفكـــير

وإن (إقبالًا) لينعى على هؤلاء المتشبهين بالغرب وأولئك الذين يؤمنون بتقليده في كل شيء فيستجيبون لدعوة السفور، ولو أنهم نظروا إلى الإحصائيات التي قاموا بها عن مدى التدهور الخلقي والانحطاط المعنوي والضياع العائلي، لو أنهم ألقوا نظرة واحدة على هذه الإحصائيات وقارنوها بغيرها ممن لا يعترفون بالسفور، وحكموا المنطق السليم وحده، لخرجوا بالنتيجة الحتمية، وهي أن السفور بوضعه الراهن وأخطاره الحالية لعنة أي لعنة وبلاء مقيم، والحجاب الممقوت حقًا هو ذلك الذي يغلف الذات، ويحبسها وراء أقنعة من الضعف والأوهام، ويحيطها بسياج من الجمود والضيق والعبث،

فحجاب (الذات) شر لا يدانيه شر، لأنها تكون آنذاك مقبورة مضيعة.

عـــشرة الإفـــرنج نهـــج مفـــسد
جهـــل الحمقـــى طبـــاع المحـــصنات

إن الغرب يزعم أن السفور والتحرر والانطلاق للمرأة حصانة لها من الكبت، وعاصم لها من الزلل، ومنقذ لها من الحرمان الذي يدفع بالنفس إلى ارتكاب الآثام والبحث عنها في خفية من الأعين.. لكن (إقبالًا) يرى أن الحصانة الحقيقية في يدي رجل قوي قادر مؤمن واعٍ، فلن يجدي الحجاب إزاء رجل منحلّ ضعيف، ولن ينفع العلم إذا كان الزوج مستهترًا متهاونًا.

حفـــظ الأنوثـــة في يـــدي رجـــل
لا العلـــم يحفظهـــا ولا الحجـــب

ولا يعني (إقبال) بذلك أن تستعبد المرأة وتحتقر، ويكون الرجل لها بمثابة سجان جاف الطباع غليظ القلب، كلا.. فالعلاقة بينهما تقوم على أساس المحبة والاحترام المتبادل والثقة والتآزر، على أن تحفظ المرأة قدسية بيتها، وكرامة زوجها، وعفة نفسها، ولا تتمرد على الصفة التي هيّأتها لها الطبيعة.

وقضية تعليم المرأة كانت من المشاكل التي واجهت (إقبالًا). إن (إقبالًا) لن يتناول كل علم وفن بالتفصيل، ويبين

مدى ملائمة كل شيء لها، فهو مؤمن بأن العلم نور وبعث وانطلاق إلى الأمام في سبيل الوصول إلى الذات الكاملة المؤمنة، لكن أي علم يقصده (إقبال)؟.. فإن كان التعليم سيخرج بها عن دائرة الأمومة، ويشذ بها عن استعدادها الفطري ورسالتها المقدسة، فهو عين الجهل والحماقة، لأنه علم ينتزع من قلبها المشاعر الخالدة والعواطف النظيفة السماوية والإحساسات النبيلة التي تعثر بها الإنسانية كتراث رائع أبدي، ولأنه تعليم لا يغرس فيها مبادئ الدين السامية، وبور الخلق القويم، ولا يبين لها الحدود المرعية التي تقف عندها، وعندئذ قل على الحب وعلى الحق والخير العفاء:

مَـوت الأمومـة إن رامـت حـضارتهم .

فـالموت عاقبـة الإنـسان في الغـرب

أن يجعـل المـرأة التعلـيم لا امـرأة

فـالعلم مـوت يـراه صـاحب القلـب

إن تحـرمن الفتـاة الـدين مدرسـة

فـالعلم والفـن مـوت العـشق والحـب

و(إقبال) حينما يثبت هذه الحقائق التي لا جدال فيها ولا مراء، يعترف بأن المرأة قد تحملت تبعة قاسية، وحملًا ثقيلًا، لكن ما الحيلة في ذلك؟.. هكذا أرادت لها الطبيعة هذا الوضع،

وهكذا رسمت لها الفطرة ذلك المنهاج الذي اختاره الله لها، فلا حيلة لنا في ذلك.. وأي تمرد وثورة على الفطرة عبث لا طائل تحته:

كـــذلكم في فـــؤادي للنـــساء أســـى
لكنهـــا عقـــدة أعيـــت عـــلى الحيـــل

تلك عجالة سريعة عن رأي (إقبال) في موضوع المرأة.

❊ ❊ ❊

النزعة الإنسانية والعالمية
في شعر «إقبال»



«... يا ضياء الإنسانية، والإخاء، طارد بقوتك ظلام البغضاء حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس، عسى أن تشاهد الأمم مرة أخرى وجه السعادة التي اختفت خلف مطامع المتحاربين».

هذا بعض ما قاله (إقبال)، حينما كان يحلم بعالم تسوده المحبة والإخاء وتتحطم فيه -كما أسلفنا- حواجز الدم واللون والجنس، وتندثر أحقاد الطبقات التي لا تقوم إلا على مشاعر البغض والتناحر والاستبداد.. لقد كان يهفو إلى عالم نظيف، قد هجمت فيه الحروب، واستكانت المطامع الحمراء، ونامت الأهواء الكافرة.

ونظر (إقبال) بعين الحقيقة والواقع إلى العالم الحديث، فبدَتْ له أمراضه واضحة كالشمس، فكان أول ما راود ذهنه أن ينقذ السقيم مما دهاه، لذا وضع فلسفته الخالدة، التي ارتآها لأنها

وقود الخلاص، وروح البعث الإنساني، وحادي القافلة العالمية إلى طريق السعادة والهدى.

وقد التزم في فلسفته جادة الإسلام، واتخذها سبيلًا إلى الحرية بعد أن درس وبحث وفكر وعاش في خضم الحضارات المختلفة والمدنيات المتعاقبة بقلبه وفكره، فتيقن أنه لا خلاص للعالم إلا بدواء الإسلام -بروحانيته وماديته- كما رأى (برنارد شو)، و(تولستوي) وغيرهما من فلاسفة الغرب مثل هذا الرأي.

ولم يشغل تفكير (إقبال) قضايا العالم الإسلامي والعالم العربي فحسب، بل تناول كل ما يشغل أذهان العالم من مشاكل، فتحدث عن عصبة الأمم، وعن هؤلاء الذين يعبثون بقداستها وقوانينها ويسخرونها لأهوائهم، حتى أنه كان من أول المتنبئين لها بالتمزق والفشل، لبُعد نظره السياسي، وناقش نظريات الحكم المختلفة، وواجه (موسوليني) برأيه في قوة وحزم، وبسط له تبلبل الأفكار في الأمة الإيطالية، ومغزى الحكم الدكتاتوري، وتنبَّأ أيضًا بانهيار إيطاليا السياسي عن قريب، وقد حدث ما توقعه إبان الحرب العالمية الثانية.

وناقش (إقبال) قضايا الاشتراكية، واعتقادات الشيوعية، وفلسفتها، وضرب بسهم وافر في شرح المذاهب العالمية وماهيتها، شأن العالِم المتبصر الخبير.

وكثيرًا ما ترى في شعره صورة لصراع الحبشة من أجل التحرير، وثورات الشام وهي تناوئ الاستعمار، وتمرد الهند وهي تدافع الغزاة، وتحذيره من اليهود وهم يحيكون الألاعيب والمؤامرات، وخطط سماسرة السياسة، ومستغلي الشعوب الذين يبيعون أنفسهم وضمائرهم للشيطان.

لقد كان نصيرًا لقضايا الحرية في كل مكان في الشرق والغرب، وكان غيورًا على الأخلاق ثائرًا على ضياعها، عند الغربيين المنحلين المارقين أو الشرقيين الجامدين الخانعين.

وكم كان حزن إقبال أليمًا، حينما طلّقت تركيا إسلامها، وقضى (كمال أتاتورك) على الخلافة الإسلامية وعلى صلة تركيا بالعرب، وقذف بنفسه في أحضان الغرب بلا تحفظ، ولكم نعى على (رضا بهلوي) في إيران سياسته المتعجرفة التي تؤمن بكل ما يأتي به الغرب، وكان (إقبال) يظن أن أمثال هذه الحركات في (تركيا) و(إيران) وغيرهما ليست إلا خبط عشواء، والتباس أفكار ومركب نقص، وإيمانًا مطلقًا بروعة المدنية الحديثة على علاتها، وكان يعتقد أن حركة البعث الحقيقية هي يوم أن يهب المسلمون من غفلتهم، وينشروا نور مبادئهم وحضارتهم العريقة ويجوبوا ميادين العلم والكفاح في همة ونشاط.

و(إقبال) يرى أن حكم الشعوب يجب أن تسيره الفئة الفاهمة الواعية والتي لها من نضوجها وإيمانها عاصم من الزلل والميل،

لهذا فهو يأخذ على النظام (الجماهيري) أنه لا يزن الرجال الوزن الحقيقي، بل يعتمد على العدد لا القيم الشخصية، وبمعنى آخر قوامه (الكم) لا (الكيف)، وإقبال بهذا يرى أنه من الأوفق والأرجح أن يكون للفئات ذات الكفاءة المرموقة كلمتها ورأيها، كما كان في صدر الإسلام بالنسبة لأهل (الحل والعقد)، لذا يقول (إقبال):

نظـــام الجماهـــير حكـــم بـــه
تعـــد العبـــاد ولا تـــوزن

ومع ذلك فـ (إقبال) يحترم رأي الأغلبية، ويسير على رأي الجماعة لأنه صاحب نظرة ديمقراطية سليمة، وفي نفس الوقت صاحب وجهة نظر طيبة ترفع من قيمة الإنسان وتقدّر كفاءته ومواهبه الشخصية.

و(إقبال) لا يفتأ يردد الشكوى من طغاة العالم الذين يذيقون الشعوب الضعيفة الويلات، ويبكي من أجل السلام الضائع والقوة الغاشمة التي لا قلب لها ولا ضمير.

كـــم أصـــاب الإنـــسان في هـــذه الأ
رض مـــن إســـكندر ومـــن جنكيـــز
ويقـــول التـــاريخ في كـــل عـــصر
خطـــر فـــرط قـــوة لعزيـــز

وهـــي ســـم بغـــير ديـــن، وبالدينـــ

ن دواء لـــــك ســـــم نجيــــز

وهكذا ظل (إقبال) طول حياته يحارب السياسة اللادينية في (روسيا) و(تركيا) و(أوروبا) وفي أي مكان، لأن (الميكافيللية) ليست كما يرى من الإسلام، ويعتقد أيضًا أن السياسة اللادينية ستودر الإنسان موارد التهلكة والدمار، وتسلبه أسمى ما يعتز به من مشاعر وتقاليد وعقائد.

مـــا الحـــق مخـــف عـــن فـــؤاد سره

فلقـــد حبـــاني الله قلبًـــا مبـــصرًا

فـــسياسة اللاديـــن عنـــدي خـــسة

مـــات الـــضمير بهـــا وإبلـــيس افـــترى

لمـــا قـــلى حكـــم الفـــرنج كنيـــسة

ساســـوا كـــشيطان بـــلا قيـــد جـــرى

شرهـــت لأمـــوال العبـــاد كنيـــسة

فـــإذا الخمـــيس سـفيرها بـــين الـــورى

فالاستعمار أنى حط رحاله، وحيثما ألقى بعصاه، يأخذ أكثر مما يعطي ويهدم أكثر مما يبني، ويفسد أكثر مما يصلح، لأنه يأبى إلا أن يظل محتفظًا بصولجانه، متمتعًا بسلطانه، حائزًا على أسباب الثراء والنفوذ!

لقد كان (إقبال) ينشد البعث لأمم الأرض قاطبة، ولا يرجوه للمسلمين فحسب، فحال أوربا في نظره لا ترضي، وخطتها منحرفة، وكذلك حال الشرق لا تسرّ.

على الشرق ذلة واقتداء
ونظام الجمهور في الغرب داء
مرض القلب والبصيرة فاشٍ
ما بشرق ولا بغرب شفاء

فكان لا مناص من أن تتسع رقعة فلسفته فتشمل القاصي والداني، وتتناسى الألوان والأجناس وعناصرها التفرقة، فكلهم في نظره يحتاج إلى رعاية وعلاج وصحوة، سواء في ذلك الغاصب والمغصوب، وإزاء ذلك كان لا يفتأ يصرخ بنزعته الإنسانية العامة التي لا تعرف التعصب، فلا هو بهندي ولا عربي ولا شرقي ولا غربي، إنه إنسان وكفى، وبشر يؤمن (بذاته) وإنسانيته، فقد علمته فلسفته الذاتية أن يحلق فوق مستوى الأهواء والتفرقات:

إلى عصبات العرب ما أنا منتم
ولست بهندي ولا أنا أعجمي
فقد علمتني (الذات) تحليق نافر
يمر على الدارين غير محوم

فـــدينك تعـــداد لأنفـــاس محجـــم

ودينـــي إحـــراق لأنفـــاس مقـــدم

ومع أحساس (إقبال) بهذه النزعة العالمية، إلا أنه يرى أنه هندي أعجمي بحكم المولد والنشأة، فيقول: وماذا في ذلك؟ إذا كنت هنديًا في أنغامي، فإني (عدناني) الصوت مسلم حنيفي، وإذا كانت كأسي من صنع الأعاجم، فإن خمرتها حجازية المنبع، وأفكاري مستمدة من النبي العربي، وهل الإسلام إلا دين الله في الأرض ووصيته الأخيرة إلى الناس عامة، وقد انضوى تحت لوائه الطوراني والساماني، والشرقي والغربي:

أنـــا أعجمـــي الـــدن لكـــن خمـــرتي

صـــنع الحجـــاز وكرمهـــا الفينـــان

إن كـــان لي نغـــم الهنـــود ولحـــنهم

لكـــن هـــذا الـــصوت مـــن عـــدنان

ولقد توارد في شعر (إقبال) أسماء الأعلام من أئمة الفكر والحرب والدين والسياسة في شتى العصور والبقاع، فكان شعره موسوعة لهؤلاء جميعًا... تحدث عن (محمد) ﷺ و(عيسى) و(جنكيز) و(الإسكندر) و(نيتشه) و(أفلاطون)، وتعرض لـ (موسوليني)، و(ابن الرومي) و(ابن سينا)، وأحنى رأسه إعجابًا بـ (علي) و(عمر) و(أبي ذر)، وتحدث عن الفلاسفة

والصوفية والملحدين والمؤمنين... كل ذلك لأنه كان إنسانًا يعيش بكل ذرة من كيانه، فشعر (إقبال) سجل حافل للأحداث التاريخية والسياسية العالمية، وسفر جليل لماضي الإسلام وحاضره.

(إقبال) و(أبو العلاء المعري):

يقولون إن (أبا العلاء المعري) وإقبالًا أعظم شاعرين في الإسلام، والحقيقة أنه لكي نوازن بين الشاعرين نجد كثيرًا من العقبات التي تعترض طريقنا، فقد سبق (أبو العلاء) (إقبالًا) بما يقرب من ألف سنة إلا قليلًا، فظروف العصر والبيئة تختلف اختلافًا بينًا.

هذا مع أن (أبا العلا) كان يكتب شعره بالعربية في حين أن الأوردية والفارسية هما اللغتان اللتان كتب بهما شاعر الباكستان أشعاره، ومما هو جدير بالذكر أن الشعر عندما يترجم من لغة لأخرى يفقد كثيرًا من مزاياه البلاغية والبيانية، ولا يحتفظ في الغالب إلا بالمعنى المجرد والفكرة الغالبة، وهذه أيضًا قد يتناولها كثير من التحريف أو قليل!.

غير أننا نستطيع أن نتستخلص أن لكل منهما فلسفة خاصة ينظر بها إلى الحياة وما يعد الحياة. إلى الناس ومعتقداتهم وأخلاقهم، ولقد استطاع شاعر المعرة أن يحظى بقسط وافر جدًا من العلوم المختلفة والفنون التي شغلت أفكار عصره، فلقد قرأ

فلسفة الإغريق، ونظريات الرومان، وأكب على ما ترجم من الحضارات الفارسية والهندية وغيرهما، حتى أنك تقرأ في شعره كثيرًا من النظريات العلمية، في مجال الاستشهاد والتشبيهات كالطب والفلك والقضايا الفلسفية والرياضيات والطبيعيات فضلًا عن أنه جوب الآفاق، وأكثر الأسفار وتلقى العلم على يد كثير من العلماء الأجلاء في شتى عواصم العالم الإسلامي!.

وبالاختصار استطاع (أبو العلاء) -رغم أنه ضرير- أن يحصل على أقصى ما يستطيع الحصول عليه في زمانه، ولقد كان (إقبال) هو الآخر عالمًا رحالة، استوعب كثيرًا من فلسفة الشرق والغرب قديمًا وحديثًا، وألم بالقانون والشريعة الغراء.

ولعل هذا إحدى النقاط التي تشابه فيها شاعرانا العظيمان، ولقد كان (أبو العلاء) مضرب المثل في الإباء والأنفة فلم يتزلف لأمير ولم يمدح عظيمًا من العظماء رياء ومداراة، ولم يجعل شعره مطية مسخرة لنيل المطامع الدنيوية الحقيرة، وقربة إلى ذوي الجاه والسلطان بل كسر في نفسه شهوة التطلع إلى ما ليس معه - باستثناء العلم وحده- وحدة التشوق إلى المظاهر الخلابة البراقة، وما ظنك برجل أقام لنفسه سجنًا وحرم عليها لقاء الناس والاختلاط بأسواق الدنيا ومجتمعاتها، إنه لا شك عظيم السيطرة على أهوائه ومطامعه.

ولقد كان (إقبال) هو الآخر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عزيز النفس حر التفكير عالي الهمة نبا بشخصه بعيدًا عن مواطن الشبهات والإسفاف، وعاش طليقًا متحررًا إلا من رسالته وعقيدته، بل طلق المناصب الحكومية كلية، ونصب نفسه حارسًا لحرمة الحق، مدافعًا عن كيان الملة، نافخًا في بوق البعث الأكبر.

ولعل سمة العزوف عن مطامع الدنيا والفرار من التزلف والتكسب بالشعر صفة مشتركة ثانية لكلا الشاعرين الكبيرين.. لكن شتان بين هذا وذاك.

إن (المعري) عزف عن الدنيا كرهًا لها وتحقيرًا لشأنها، ومقتًا لأهلها اللؤماء والأوغاد الأقذار كما يقول. فهي دنيا مليئة بالغدر والخيانة. والخير (أسطورة) لا وجود لها، والحب بدعة لا تجوز إلا في عقول المجانين والمخدوعين، والقناعة والرضا وهم باطل، بل هما مجرد اسم لأن الناس جميعًا ليسوا إلا طامعين جائعين، لا يُشبع لهم نهم، ولا يُروى لهم ظمأ، إنهم كالوحوش الضاربة.. أجل كالوحوش الضاربة، لأنهم يسفكون دماء بعضهم، ويدوسون الحقوق، ويسخرون من العدالة، ولا منطق لديهم إلا القهر والإرغام، بل إن الوحش الضاري لا يفترس إلا إذا جاع فقط، أما هؤلاء الناس فكلما ازدادوا شبعًا وريًا اشتغلت فيهم الرغبة إلى المزيد واشتاقوا إلى النهب والسلب والفساد، حتى الوعاظ والعلماء فئة مارقة في نظر (أبي العلاء) ليست

تراعي إلا ولا ذمة، وتتجر بالدين، وتتكسب بالشرائع، وتشكلها حسب هواها كيما توائم مصلحتها ومنفعتها. فالواعظ أو الناصح في قوله:

يحـــرّم فـــيكم الـــصهباء صـــبحًا
ويـــشربها عـــلى عمـــد مـــساء
يقـــول لكـــم غـــدوت بـــلا كـــساء
وفي لـــــذاتها رهـــــن الكـــــساء
إذا فعـــل الفتـــى مـــا عنـــه ينهـــى
فمـــن جهتـــين لا جهـــة أســـاء

والحكام أيضًا ليسوا إلا إخوان عود، وعبّاد كأس، وجلّاس الغيد الحسان، ورؤساء عصابات يختلسون أقوات الشعب ويهزؤون بحرياتهم ومقدسات حياتهم.

هذه هي الحياة كما بدت (لأبي العلاء) بناسها وعلمائها ووعاظها وحكامها، ومثلها العليا من خير وحب وعدالة وحق، لقد آمن (أبو العلاء) بذلك فزهد في الدنيا، وتركها غير آسف عليها لأنها دار هوان وشقاء وبلاء لا يريم.

و(إقبال) يرى الدنيا طيبة مرضية، وأنها لم تخلق عبثًا، ولم تترك سدى، وأن الناس كلهم ليسوا ملائكة، كما أنهم ليسوا جميعًا بالشياطين والأبالسة..إنهم بشر رُكبت فيهم روحانية

السماء النورانية، ومادية الارض النارية. وهاتان القوتان ككفى ميزان قد ترجع إحداهما الأخرى فإذا ما دار الزمن دورته، أو طرأت ظروف ومؤثرات فقد تنعكس الآية فتشيل إحدى الكفتين وترجح الثانية فليس جميع الناس أوغادًا أشرارًا لئامًا، فالشر بجانب الخير منذ أن خلق الله النور والظلام وأنشأ (آدم) وصوّر (إبليس)، وإن من خلق نمرود ونيرون وغيرهما هو نفسه سبحانه الذي أهدى إلينا محمدًا ﷺ و(عيسى) و(موسى) و(أبا بكر) و(ابن الخطاب).

ولا شك أن الشوائب والأسقام التي تعتري كيان البشرية مثلها كمثل الأمراض التي تكن في جسد الإنسان، وكلاهما يحتاج إلى علاج ومواساة فإذا كانت الأمراض العضوية تعالج بالبتر أو العقاقير أو بالمباضع، فإن أدواء البشرية من شر ونفاق وظلم لها هي الأخرى وسائل للإشفاء.. كانت نظرة إقبال إلى الدنيا إذن نظرة واقعية آملة واعية وأن الإنسان نفسه يستطيع أن يخلق من الألم سعادة، ومن الحرمان لذة، ومن الكفاح والنضال متعة، ومن الأزمات والنكبات عبرة ودروسًا وحافزًا للوثوب، وأن يصبر ويصابر ويثابر، وأن يتوكل ولا يتواكل، وأن ينمي ذاته ويربيها التربية الكاملة التي تصل بها إلى مرتبة خلافة الله في الأرض، فيحق الحق ويزهق الباطل، ويدفع الناس دائمًا من حسن إلى أحسن في طريق الإيمان والإرادة القوية.. وإلا فما

جدوى السخط على الدنيا وعلى الناس والتنكير لكل ما هو جميل مستحسن بينهم، واعتبارهم مجموعة من الذئاب المجنونة؟.. هذا ما فهمه (إقبال) عن الحياة والكائنات، فبنى على أساسه فلسفته، ولقد ارتأى (أبو العلاء) عكس ذلك فيما يبدو، فكان لفلسفته طريق غير طريق (إقبال).

ومع هذا فقد كان لأبي العلاء الفضل الأكبر في نقد كثير من الأوضاع الفاسدة، والكشف عن كثير من طبائع النفوس وخباياها، والغوص وراء مكنون الضمائر وخفاياها، والضرب في آفاق مليئة بالصور والمتع الذهنية.

ولقد ترك تراثًا أدبيًا جبارًا يعتبر ذخيرة قيّمة في أدبنا العربي خاصة والأدب العالمي عامة، ولعل رسالة الغفران التي كتبها حازت من الشهرة والاهتمام والتقدير شيئًا كثيرًا، فضلًا عن أنه كان رائدًا من رواد الحرية الكبار في عالم الفكر والفلسفة!

ورغم هذا، فقد كان يائسًا من الدنيا ومن فيها لعنادهم وصلفهم.. أما (إقبال) فقد أسهبنا آنفًا في وصف شعره الذي يؤمن بالتحرر ويعيش على الأمل ويجوب في معالم النفس البشرية وطواياها كما كان يفعل أبو العلاء، ولا ييأس أو يهرب أو ينزوي في محبس من صنعه بل ينقذف في معمعان المعركة الناشئة، معركة الحياة التي يؤمن بأنها قنطرة إلى عالم زاهر جميل، عالم الخلود الأبدي.

وكان فيلسوفنا (أبو العلاء) شاكًّا مترددًا، متمردًا على القضاء والقدر، ويعتقد أنه مظلوم مغبون، طريد الأقدار، ولطالما تساءل: كيف ألام ،أُعاقَب وقد أتوا بي إلى الدنيا دون أن أُستشار، ودرجت فيها رغم أنفي، وأنا عاجز الإرادة، ضعيف القدرة، يكبلني القضاء المكتوب، وتسيّرني قوى خفيّة بعضها كامن في أعماق روحي ومناحي جسدي، وبعضها الآخر لا أدري له كنهًا، ولا أعلم له حقيقة؟ ... ثم ماذا كنت قبل أن أولد؟ ولماذا خلقت؟ وما مصيري بعد الموت، أهو نومة أبدية لا صحوة فيها، أم تراها حياة أخرى جميلة خالية من المتاعب والأهوال التي تجرعت كؤوسها في دنياي.. وهل هناك بعث أو نشور، أم هو الفناء الذي لا حياة بعده؟.. إني حائر .. تعيس.. شقي.. يا إلهي!.. إني ضحية.. ضحية الناس والزمان والأقدار!

وهكذا كان (أبو العلا) حائرًا شاكًّا لا يدري له مصيرًا، ومع هذا فقد كانت تطوف به أوقات من الهدوء، ولحظات من السكينة والتجلي والإيمان، فيؤوب إلى الله يسكب في حضرته دموع التوبة والندم، ويبتهل إليه في حرارة وشوق وروحانية مشرقة، لكنه كان يعود مرة أخرى إلى بلبلته وتشككه، ويصطلي بنار القلق والحيرة من جديد، فيبعث الشكوى والأنين في شعر لافح مر، ويصب على نفسه ألوان اللوم والتقريع ويعود إلى محبسه الاختياري بجفون مخضلة بالدمع، وقلب مشرب بالأسى

ونفس ملتاعة بالأحزان غاصة بالأوهام والآلام. لهذا كان ممن أحسنوا التعبير عن قلقهم النفسي الموجع ولوعة أفئدتهم المكلومة الطعينة.

وإقبال يؤكد أن وراء حياتنا الفانية عالمًا آخر خالدًا، فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يعقل أن تكون الحياة عبثًا وسدى، بل إنها وسيلة إلى عالم أفضل وقنطرة إلى الآخرة حيث السعادة التي لا تعتريها شقوة والراحة التي لا ينغصها نصب، والنعيم الذي لا يشوبه ألم، ولذا فهناك بعث ونشور يوم ينفخ في الصور، وهناك جنة ونار، وهناك أيضًا عقاب وثواب وحساب عادل. أما مسألة الجبر والاختيار، والقضاء والقدر فقد أوضحها (إقبال) في شعره، أيضًا الرجل المؤمن، ذي الضمير المستريح، والقلب المطمئن، والروح الهادئة المستقرة!

تلك لمحة قصيرة عن (إقبال) و(أبي العلاء المعري) ولا شك أن الإلمام بأوجه الاختلاف والاتفاق تفصيلًا تحتاج لفرصة أخرى!

وكل ما نستطيع أن نقوله في نهاية هذه اللمحة الخاطفة أننا يجب أن ننصف (أبا العلاء) كمفكر حر أنار الطريق أمام رواد العلم والبحث والثقافة، وننصفه كإنسان تألم لآلام البشر وضحايا الحياة. فبلغ درجة لا يستهان بها في روعة تعبيره،

ونصفه كآدمي عبقري أستطاع أن ينشر ما يعتمل في نفسه من انفعالات كثيرة، وننصفه كشاعر من كبار شعراء العربية بأسلوبه الجزل القوي وأخيلته السامية وتعليلاته الدقيقة، وننصفه كناقد بارع لأوضاع المجتمع ونواقصه وعيوبه، وننصفه كعالم فذ، وفيلسوف نادر المثال، وناظم لا يشق له غبار!

أما (إقبال) فإنصافه شيء من نافلة القول، فله من كفاحه القوي، وعقيدته السليمة وبيانه الفياض (وذاته) القوية المؤمنة ما لا يدع مجالًا لقول قائل.

القلندري:

في الهند كثير من العجائبَ، هناك أقوام يتلذذون بالسير فوق المسامير والأشواك أو النوم فوقها وهم عراة الأجساد، وفيها أقوام يقضون الأيام العديدة دون أن ينالوا شيئًا من الغذاء! وفيها من يداعبون الثعابين القاتلة السامة ويراقصونها على أنغام الموسيقى ودقات الطبول، وهناك من ينفردون بتقديم ألوان مدهشة من السحر وسط الأبخرة المتصاعدة وألحان الناي التي تأخذ بمجامع القلوب، ثم هناك من كانوا يزهدون في الدنيا قاطبة، فينطلقون وهم مجردون من المال والمتاع بلا هدف ولا غاية أمعانًا في إيلام أنفسهم وتنفيسًا عن طاقات روحية هائلة مذخورة، فالهند كما قلنا بلد الروحانيات المتزايدة والتصوف القديم منذ فجر التاريخ، وبلد المذاهب الكثيرة والنحل المتباينة فأصبحت دياناتها تعد بالمئات ولغاتها كذلك.

وهناك في (الهند) مذهب يسمى مذهب (القلندرية) نسبة إلى مؤسس هذا المذهب الذي اعتبره صاحبه لونًا من ألوان التصوف، وكان السالكون لهذه الطريقة جوّابين في الآفاق، ضاربين في شتى أنحاء الأرض، ولا يرتبطون بوطن عاشوا تحت سمائه، الأرض كلها مسرح ومراح لهم، ينامون حيث يبغتهم النوم، يأكلون أينما تيسر لهم الطعام، وينطلقون إذا أحسوا برغبة في الانطلاق:

الحـــــــب والزهـــــــد زادي
وكـــــــل أرض بـــــــلادي (1)
ومـــــن ثراهـــــا وســـــادي
ولا أديـــــــــــــــن وربي
لحـــــــاضر أو لبـــــــادي

ويمضي الواحد منهم هكذا حليق الرأس واللحية تستره الأسمال وينتعل الأوحال. وقد كتب عن القلندرية الإمام (السهروردي) في كتابه (عوارف المعارف) في الباب التاسع عند ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم فقال:

«... فمن أولئك قوم يسمون أنفسهم (قلندرية) تارة، و(ملامتية) تارة أخرى، ولقد ذكرنا حال الملامتي، وأنه حال

---

(1) من شعر المؤلف.

شريف ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار، وتحقق بالإخلاص والصدق وليس مما يزعم المفتونون بشيء، فأما القلندرية هي إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم، حتى خربوا العادات وطرحوا التقييد آداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلّت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحًا برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ومع ذلك فهم متمسكون بترك الادخار وترك الجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب.. إلى أن يقول:

.«والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله وبما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القول وهو رأس ماله».

تلك كلمة قصيرة عن القلندرية من الوجهة التاريخية والفكرية لكن.. كيف نظر (إقبال) إلى (القلندرية)؟

ولماذا سمى نفسه في كثير من مقطوعاته (بالقلندري)؟.

وهل كان (إقبال) يؤمن بهذا المذهب؟. وإذا كان كذلك فلماذا لم يتتزع شعر رأسه ويرتدي الأسمال وينطلق كالمسافر الضليل لا يعلم له جهة، ولا يعبأ بأهل ولا وطن.

والحقيقة أن (إقبالًا) كان أكبر من أن يقيد نفسه بمذهب ضيق الحدود، أو فكرة قصيرة النظر غير واضحة السمات، فكيف يترك (إقبال) الدنيا وما عليها، ويتفلت منها إلى الزهد الكامل أو التحرر الذي لا يحده حد؟ وكيف يترك حشود الجياع، وجموع الضائعين المستعبدين في الهند وملايين الجهلاء والمرضى والبلهاء؟.. ليكن (إقبال) (قلندرًا).. لكن أي (قلندر) يكون؟.

لا يجد (القلندري) راحة وإن ثوى بقبره تحت الثرى..

إذن (القلندري) الجديد الذي صوّره (إقبال) وأضفى عليه من جميل الصفات ما جعله جديرًا بالحذوة والاقتداء، مثل هذا (القلندري) هو المثل الأعلى لفلسفة (إقبال)، هو المؤمن الحق؛ المكافح الخالد، ذو النفس القوية الخالدة رغم الزمان والمكان والبقاء والفناء، المؤمن الذي لا يجد راحة في دنياه، ولا يركن إلى الهدوء والسكون في أخراه لأنه حلقة متصلة من الدأب والنضال والسمو والترقي إلى أوج الكمال.

وليس (القلندري) هو ذلك الذي يرتدي الأسمال، ويحطم التقاليد ويسخر من دنياه ولا يعبأ بدار أو وطن هائمًا على وجهه.

إن (القلندري) الجديد إنسان ثاقب الفكر، نابض العزيمة، لا يستعبده مال، ولا يستذله منصب أو جاه، ولا يسخره طاغ بوعد أو وعيد.

والقلندري فرد (بذاته) المكتملة، كل بكفاحه من أجل الحق المجرد، والأخذ بيد الأحياء إلى دنيا أسمى وأروع، إنه يملك الدنيا ويوجهها وجهة الخير لأنه من حديد وعزيمته وصلابته وروحه من حديد، لا لأنه يملك في يده حديدًا فحسب، ولكن لأنه هو نفسه حديد، فلا فائدة في حديد تحمله يد هشة، ويقذفه قلب مفزع وتحركه روح واهنة، أو تطرقه ذات مبعثرة. قال (موسوليني) (لإقبال):

«إن من ملك الحديد، فقد ملك كل شيء» فرد (إقبال) عليه قائلًا: «إن من كان هو حديدًا فهو كل شيء».

وبهذا العزم سيطر (القلندري) الجديد الذي بعثه إقبال من مرقده وألبسه هذه الصفات الجديدة.. سيطر على الزمان، وخاض عباية الصاخب. واستطاع (بتكبيره) وإيمانه أن يمحق سحر الزمان فلا يستعبده، ففي قصيدته (همة القلندر) يقول:

يقـــول للزمـــان ذلـــك الفتـــى

امـــض إلى حيـــث يـــسير المـــؤمن

مـــا لـــك في معتركـــي مـــن طاقـــة

حـــذار مـــن قلنـــدر لا يـــذعن

إذا طغـــى الـــيم فيهـــا أقـــدمن

مـــا حـــاجتي ملاحـــه والـــسفن

ويقول في مكان آخر -وهو يعني نفسه-:

لــــيس يخفـــى عـــلى القلنـــدر فكـــر
ســـــاور الـــنشء ظـــاهرًا وخفيًّـــا
أنـــا عنـــدي بكـــل حالـــك خـــبر
فبهــــــذا الطريـــــق سرت مليًّـــا
لــــيس هـــم الغـــواص أصـــداف بحـــر
يبتغـــــي الغائـــــصون درًا بهيـــا

فشتان بين (قلندري) و(قلندري).

فإن أولهما قد اتسم قلبه بالطيبة، ونذر نفسه لله، فجرى وهام على وجه بلا هدف محدود ولا خطة مرسومة، ولم يلتفت للناس، والثاني باع نفسه لله خالصة، فاتخذ السبيل الحق، وهتف بالناس أن سيروا ورائي إلى الله، وأوضح وأبان، وتركز ودقق، ولم يدع جهده مشتتًا موزعًا هباءً منثورًا.

فكان هذا (القلندري) الجديد هو قائد البعث، وشعار الذات الكاملة، وهو الذي أذاع سر الوثبة المباركة، وحركة الزحف والتحرر.

قـــال للرومـــي في الخلـــد ســـنائي
لا يـــزال الـــشرق بالتقليـــد يـــؤسر [1]

(1) الرومي وسنائي ومنصور: من كبار الصوفية.

قال منصور: ولكن قد سمعنا

أن سر الذات أفشاه قلندر

ومن ألصق الصفات (بالقلندري) صفة هامة هي:

الفقر:

ولقد أكثر (إقبال) من ذكر كلمة الفقر، وعدّها صفة من أعظم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان المؤمن الفاضل، ولم يقصد (إقبال) بالفقر ذلك المعنى الدارج المعروف وهو عدم المال أو قلته. ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام: «.. والذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان، وربما يملك الفقير قناطير من الذهب، وربما يكون ملكًا مسلطًا لا يعجز سلطانه مال أو متاع». وليس هذا المعنى بعيدًا عما فسر به بعض الصوفية الفقر، ففي رسالة القشيري: «سئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال: حقيقته ألا يستغني إلا بالله». وقال (الثعلبي): «أوفى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يومه ما صدق في فقره».. فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال، ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده»أ هـ.

وفي قصيدة فقر الصالحين يقول (إقبال) ما معناه:

«يا عبيد المال وعشاق الطين والمتاع، ألا أخبركم عن الفقر الرفيع العظيم؟.. هو أن تستبين طريق العارفين، وتروي فؤادك الظامئ من ينبوع الإيمان واليقين.. مثل هذا الفقر عزيز النزعة، رفيع الجناب، غني عن الدنيا وما فيها، أو قل هي طوع يمينه، حتى لكأن الجوزاء بسموها ورحابتها لا تحتاج منه إلا إلى خطوة يسيرة كي يطأها.. وإذا انطلقت أصداء صوته في العالمين، أرعشت الكائنات وهزّت البقاع، وما هذه العزمة الفتية، والقوة الجبارة، إلا لأنه يؤمن بأن هذا الكون ليس له إله إلا الله!

إن الشوق يملأ كل ذرة في كيانه، والرضى يسري بين حناياه، وتذوق الخير والحب والجمال يغمر روحه، وهو دائمًا يسلم أمره لله، ويرضى بما قسم له قناعًا وزهدًا لا عجز وضعف وكسل! فيا له من فقر رائع حقًّا، ملأ الأرض صفاء وسناء وأشاع فيها بهجة وسعادة، ولا عجب في ذلك لأن هذا الفقر ميراث النبي الأعظم محمد ﷺ.. أن له في الظلمات الحالكة نورًا مسرجًا إلى المجد فإذا غلبت الدجنات على البسيطة انجابت عن عينيه الغشاوات، وبدا الظلام ضياء غامرًا!.

وللفقر عزيمة تصنع المستحيل، وتركب الصعب، وتخلق من اليأس أملًا، ومن الفشل نجاحًا ومن (الزجاج جواهر ثمينة)، وربما استطاع بإيمانه أن يغير ناموس الفلك، وأن يكون سناء

الملائكة والتماعهم مستمدًا منه! يا له في مظهره من مسكين مرقع الثياب، قانع بالقليل ومع ذلك فقلبه كبير يسع الدنيا بأسرها؛ إن فقرنا من نوع عجيب، فهو صامت أو نادر الكلام، خال من البهرج والدعابة والمظاهر، لكنه بهذا الصمت الحكيم يربي الأجيال، ويشيد الأمم، ويدفع بموكب الحياة قدمًا إلى الأمام».

ويستطرد (إقبال) قائلًا: إن صفة الفقر هي صفة المسلم الحق المتواضع، ورغم أنه ساس دولته من فوق حصير، فقد خشيه أولو التيجان والصوجانات:

فقرنـــــا لـــــيس بــــرقص أو غنـــــاء
لـــيس ســـكر الـــنفس في مـــوت الرجـــاء
فقرنـــــا معنـــــاه تيـــــسير الجهـــــود
فقرنـــــا معنـــــاه تـــــسخير الوجـــــود
فقرنـــــا العـــــادي سراج أو ظهـــــر
يخجـــل الـــشمس ويـــزري بـــالقمر
إنـــــه إيـــــمان در وحنـــــين
إنـــه زلـــزال تكبـــير الحـــسين

صـــاح دعنـــي أكـــتم الهـــم الـــدفين
إن كـــأسي لـــيس يـــروي العـــابثين

فكنـــوز الـــدين قـــد طـــارت شـــعاعًا

وتـــراث المـــال قـــد أمـــسى ضـــياعًا

****

أيهـــا الـــشادي بقـــرآن كـــريم

وهـــو في ركـــن مـــن البيـــت مقـــيم

قـــم وأبلـــغ نـــوره العـــالمين

قـــم وأســـمعه البرايـــا أجمعـــين

إن تكـــن في مثـــل نـــيران الخليـــل

أســـمع النمـــرود توحيـــد الخليـــل

فالفقر ليس رضا بالدون وهو خنوع للمذلة، ودردشة بلهاء، وترك الحبل على الغارب للحاكمين المستبدين، واحتجاج بالقضاء والقدر على ما أصاب أممنا من ضعة وهوان، وصبر على الغاصبين، وإنما هو عزيمة وإيمان وكفاح وإصلاح، هو الغني بعينه إن لم يكن أسمى وأعز!.. «أيها المؤمن فلتتقدم!. ليس هذا منتهى السفر».

وفي إبريل عام 1918م فاضت روح (إقبال) إلى بارئها وهو أشد ما يكون فرحًا وطربًا للموت.

***

بعض المراجع التي رجعنا إليها في هذا البحث



1- ديوان «ضرب الكليم».. ترجمة «الدكتور عبد الوهاب عزام».

2- مقالات الأستاذ «أبو النصر الهندي» في مجلة الرسالة عن «إقبال» عام 1935م.

3- ديوان «رسالة الشرق» ترجمة الدكتور «عبد الوهاب عزام».

4- فلسفة «إقبال» والثقافة الإسلامية في «الباكستان» تأليف الأستاذ «الصاوي شعلان» والأستاذ «الأعظمي».

5- مع «أبي العلاء» في سجنه - لـ «طه حسين».

6- محمد «إقبال» «سيرته وفلسفته وشعره» الدكتور عبد الوهاب عزام.

7- ديوان الأسرار والرموز.

8- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - بـ «أبو الحسن الندوي».

9- تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند - لـ «مسعود الندوي».



كتب للمؤلف



روايات

1- الطريق الطويل.

2- في الظلام.

3- عذراء القرية.

4- اليوم الموعود.

5- رأس الشيطان.

6- الربيع العاصف.

7- النداء الخالد.

8- الذين يحترقون.

9- أرض الأنبياء.

10- طلائع الفجر.

11- ليل الخطايا.

12- ليل العبيد.

13- ابتسامة في قلب شيطان.

14- الكأس الفارغة.

15- نور الله (جزءان).

16- قاتل حمزة.

17- مواكب الأحرار.

18- الظل الأسود.

19- الرايات السوداء.

مجموعات قصص قصيرة

20- موعدنا غدًا.

21- دموع الأمير (رجال الله).

22- العالم الضيق.

23- عند الرحيل.

دراسات

24- إقبال الشاعر الثائر.

25- شوقي في ركب الخالدين.

26- الإسلامية والمذاهب الأدبية.

27- الطريق إلى اتحاد إسلامي.

28- المجتمع المريض.

29- أعداء الإسلامية.

شعر

30- أغاني الغرباء.

31- عصر الشهداء.

32- كيف ألقاك.

مسرحيات

33- على أسوار دمشق

* * *

الفهرس



